شرح الرسالة المغنية
في
السكوت ولزوم البيوت

للإمام الحافظ

أبي علي الحسن بن عبد الله البغدادي

المعروف بـ(ابن البناء)

المتوفى سنة ٤٧١هـ

شرحها

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

اعتنى بها وعلق عليها

أبو عبد العزيز منير الجزائري

الدار الأثرية للنشر والتوزيع

مكتبة طالب العلم للنشر والتوزيع

شرح الرسالة المغنية

في

السكوت ولزوم البيوت

حقوق الطبع محفوظة للشارح حفظه الله

الطبعة الأولى بالجزائر

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٨ م

ردمك: 978-9961-934-73-9

رقم الإيداع القانوني: 12/2018

الدار الأثرية للنشر والتوزيع

عنابة / الجزائر

جوال: 00213791317734

dar_elatharia@yahoo.fr

مكتبة طالب العلم للنشر والتوزيع

بسكرة - الجزائر

جوال: 066621783 / 0661150101

Maktabat.talib.alilm@gmail.com

شرح الرسالة المغنية
في
السكوت ولزوم البيوت

للإمام الحافظ
أبي علي الحسن بن عبد الله البغدادي
المعروف بـ(ابن البناء)
المتوفى سنة ٤٧١ هـ

شرحها
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

اعتنى بها وعلق عليها
أبو عبد العزيز منير الجزائري

الدار الأثرية
للنشر والتوزيع

مكتبة طالب العلم
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المعتني

«الحمد لله الَّذي له الحمد كلُّه، وله الملك كلُّه، وبيده الخير كلُّه، وإليه يرجع الأمر كلُّه.

وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له في ذاته وأسمائه وصفاته، وأشهد أنَّ محمَّدا عبده ورسوله أفضل مخلوقاته، اللَّهم صلِّ وسلِّم علىٰ محمَّد وعلىٰ آله وأصحابه، المقتدين به في كلِّ حالاته.

أمَّا بعد: أيُّها النَّاس، اتَّقوا الله بالمحافظة علىٰ مراضيه، وحفظ الجوارح كلِّها عن مساخطه ومناهيه.

واعلموا أنَّ أهمَّ ما يجب حفظه والعناية به اللِّسان، فإنَّه يكبُّ صاحبه إذا لم يحفظه في النِّيران، وقد يرقيه إلىٰ أعلىٰ مراتب الإيمان»[١].

ولأهمية هذا ينبغي علىٰ العبد المسلم: أن يحرص كلَّ الحرص علىٰ معرفة طريقي الخير والشر، ليسلك الأول ويجتنب الثاني بلا توان، خاصة في زمن

(١) «الفواكه الشهية في الخطب المنبرية» (٢٧٤).

الفتن الَّذي تطيش فيه العقول، وتغيب الضوابط الشرعية عن كثير من الناس -إلا من رحم الله-.

ولا يمكن للمسلم معرفة هذا وذاك إلا بنور الوحي: الكتاب والسنَّة.

فتجد أنَّ القرآن الكريم قد بيَّن أنَّه: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨].

ويوم القيامة: ﴿تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وغيرها من الآيات.

أمَّا أحاديث النَّبي ﷺ فكثيرة متكاثرة، عديدة متعددة؛ تأتي أحيانًا آمرة بحفظ اللِّسان، وأحيانا بالتَّرغيب في الصَّمت والتَّرهيب من كثرة الكلام، وقد ترد في بيان استعمال اللِّسان فيما يرضي الباري جَلَّ جَلَالُهُ: (كذكر الله، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر...) أو في التَّحذير من حصائد الألسن الَّتي تورد صاحبها المهالك في الدُّنيا والآخرة: (كالغيبة والنَّميمة، والاستهزاء والتَّنابز بالألقاب، والسبِّ والفحش...).

وهذا يدلُّك أخي علىٰ أنَّ هذا الدِّين العظيم دين الإسلام دين كامل شامل:

كامل فلا يحتاج إلىٰ ما يكمِّله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣].

شامل لكلِّ شئون الحياة: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة:١٣٨].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: الزموا صبغة الله، وهو دينه، وقوموا به قيامًا تامًّا، بجميع أعماله الظَّاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتَّىٰ يكون لكم صبغة، وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعًا واختيارًا ومحبَّةً، وصار الدِّين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التَّام للثَّوب الَّذي صار له صفة، فحصلت لكم السَّعادة الدُّنيوية والأخروية، لحثِّ الدِّين علىٰ مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ومعالي الأمور»[١].

ومِن نِعَم الله علينا أن قيَّض لنا علماء عاملين ناصحين يرجع إليهم المسلم ليأخذ بنصحهم ويسترشد بتوجيههم، وبين يديك هذه الرِّسالة القيِّمة الَّتي هي مثال حيٌّ لذلك، فقد كتبها الإمام أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الله بن البنَّاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأحدهم بعدما طلب منه رسالة تنفعه في أولاه وأخراه، وتجمع له سلامة دينه ودنياه، وقد سمَّاها بـ:

«الرِّسَالَةُ المُغنِيَة فِي السُّكُوتِ وَلُزُومِ البُيُوت»

وَمِمَّا زاد هذه الرِّسالة نفعًا -بإذن الله- شرح شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر -حفظه الله- لها[٢].

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٦٨).

(٢) وأصل هذا الشَّرح دروس لشيخنا ألقاها صباح السَّبت غرَّة شوَّال سنة ١٤٣٤هـ بمدينة دبي، في دولة الإمارات العربية المتحدة في جامع الشيخ راشد بن مكتوم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومِن باب التَّعاون علىٰ نشر العلم النَّافع، والسَّعي في تعميمه للحاجة الماسَّة إليه، اعتنيتُ بهذه الرِّسالة؛ فاستأذنتُه -حفظه الله- في إخراجها في كُتَيِّب، فما كان مِنَ الشَّيخ -حفظه الله- إلَّا الموافقة والتَّشجيع، فجزاه الله خيرًا(١).

ومَا كَانَ مِنِّي إِلَّا التَّهذيب والتَّرتيب، والتَّوثيق والتَّدقيق، بَل حَاوَلتُ المُحَافَظَة علىٰ كلام الشَّيخ بِحُرُوفِهِ في شرحه إِلَّا مَا يَقتَضِيه المَقَامُ مِن إِضَافَة مَا يُربط به الكَلَام لِتَمَامِ المَعنىٰ، أو حذف المكرر، مع التَّعليق علىٰ بعض المواضع منها.

سائلًا الله ﷻ أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجزي خير الجزاء كل من أسهم في إخراجه للمنتفعين، إنَّه سميع مجيب الدُّعاء.

❋ ❋ ❋

(١) كان ذلك في بيته بالمدينة النَّبويَّة، يوم الأربعاء ٢ ربيع الآخر ١٤٣٩هـ، الموافق لـ ٢٠/ ١٢/ ٢٠١٧م.

ترجمة مختصرة للمؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ

هو الحسنُ بن أحمد بن عبد الله بن البنَّاء، البغدادي، الحنبلي، الإمام أبو علي، المقرئ، المحدث، الفقيه، الواعظ، ولد سنة ست وتسعين وثلثمائة.

قرأ القرآن بالروايات السبع علىٰ أبي الحسن الحمامي وغيره، وسمع الحديث من أبي محمد السكري، وأبي علي بن شهاب وخَلق، وتفقَّه أوَّلًا علىٰ أبي طاهر بن الغباري، ثم علىٰ القاضي أبي يعلىٰ -وهو من قدماء أصحابه-، وتفقَّه أيضًا علىٰ ابن أبي موسىٰ، وأبي الفضل التميمي.

وقرأ عليه القرآن جماعة، وسمع منه الحديث خلق كثيرٌ، وقرأ عليه الحافظ الحميدي كثيرًا.

حدَّث عنه وَلَدَاه: أبو غالب أحمد ويحيىٰ، وأبو الحسين بن الفراء، وأبو بكر بن عبد الباقي، وابن الحَصين، وأبو القاسم بن السمرقندي وغيرهم.

درس وأفتىٰ زمانًا طويلًا، وصنَّف كتبًا عديدة في الفقه والأصول والحديث، وصنَّف في كلِّ فنٍّ حتَّىٰ بلغت تصانيفه مائة وخمسين مصنفًا، وقد حكىٰ بعض أصحاب الحديث عنه أنَّه قال: صنَّفت خمسمائة مصنَّف.

وكان له حلقة للفتوىٰ، وحلقة للوعظ.

قال ابن شافع: «كان له حلقتان: إحداهما بجامع المنصور، والأخرىٰ بجامع القصر».

وكان يفتي الفتيا الواسعة ويفيد المسلمين بالأحاديث والمجموعات وما يقرِّبه من السُّنن.

وكان نقيَّ الذِّهن، جيِّد القريحة، تدلُّ مجموعاته علىٰ تحصيله لفنون من العلم، وقد صنف في زمن شيخه القاضي أبي يعلىٰ في المعتقدات وغيرها، وكتب له بخطه بالإصابة والاستحسان، وكتب في المعتقدات ما يوافق بين المذهبين الشافعي وأحمد، ويقصد به تأليف القلوب واجتماع الكلمة.

وكان من شيوخ الإسلام الفصحاء الفقهاء النبلاء، ويبعد أن يجتمع في شخص من التفنُّن في العلوم ما اجتمع فيه، وقد جمع من المصنَّفات في فنون العلم فقهًا وحديثًا وفي علم القراءات والسِّير والتَّواريخ والسُّنن والشُّروح للفقه والنَّحو جموعًا حسنة تزيد علىٰ ثلثمائة مجموع.

من تصانيفه الكثيرة: «شرح الإيضاح لأبي علي الفارسي» في النحو، «الرسالة المغنية في السكوت ولزوم البيوت»، «مصنف في طبقات الفقهاء»، «سلوة الحزين عند شدة الأنين»، و«نزهة الطالب في تجريد المذهب».

توفي ليلة السَّبت خامس رجب سنة إحدىٰ وسبعين وأربعمائة، وصلَّىٰ عليه أبو محمد التميمي، وكان الجمع متوافرًا[١].

---

(١) يراجع في ترجمته رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

=

وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

مُحِبُّكُم فِي الله

أبو عبد العزيز منير الجزائري

rfabou-abdelaziz@hotmail.

=

«المقصد الأرشد» (١/ ٣٠٩)، «بغية الوعاة»(١/ ٤٩٦)، «طبقات الحنابلة» (٢/ ٢٤٢)، «ذيل طبقات الحنابلة» (١/ ١١)، «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٣٨٠)، «معجم المؤلفين» (٣/ ٢٠١)، «معجم الأدباء» (١/ ٣١٩).

مقدِّمة الشَّارح

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلَّىٰ الله وسلَّم عليه وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

فهذه رسالة قيِّمة موسومة بـ «**الرِّسالة المغنية في السُّكوت ولزوم البيوت**» للإمام أبي علي الحسن بن أحمد بن عبد الله بن البناء الفقيه العالم المقرئ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي رسالة نافعة جدًّا في بابها، كتبها رَحِمَهُ ٱللَّهُ استجابة لطلب سائل أراد وصيَّة جامعة، ونصيحة بليغة؛ فكتب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الرسالة مبيِّنًا أنَّها تجمع للمسلم -بإذن الله تبارك وتعالىٰ- السَّلامة في الدُّنيا والآخرة، وتنفعه نفعًا عظيمًا في أُولاه وأُخراه.

وهي رسالة مهمَّة مع اختصارها ووجازتها، حَوَت خيرًا كثيرًا ونفعًا كبيرًا، نسأل الله أن يغفر لمؤلِّفها، وأن يجزيه خيرًا، وأن ينفعنا بها إنه -تبارك وتعالىٰ- سميع الدُّعاء، وهو أهل الرَّجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ونبدأ مستعينين بالله:

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الحَمد لله رب العَالمين، وَالعَاقبَة لِلمُتقين، وَصلىٰ الله علىٰ سيد المُرسلين مُحَمَّد النَّبِي وَآله الطاهرين، وَبعد:

أحسن الله عونك وتوفيقك، وصونك وتحقيقك، فَإنَّك سَأَلت تَعجِيل رِسَالَة تنفعك فِي أولاك وأخراك، وَتجمع لَك سَلامَة دينك ودنياك، فأتيتك بهَا مختصرة، يستَدلُّ بأبوابها علىٰ مَفهُوم خطابها، نفعنا الله وَإِيَّاك بهَا وَجَمِيع المُسلمين -إِن شَاءَ الله تَعَالَىٰ-.

الشرح

استهل رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالته بحمد الله، والصلاة علىٰ رسوله ﷺ، وسقط ذكر السلام؛ وقد يكون السقط من النساخ، أو أنه فاته كتابة ولم يفته نطقًا، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

ثم بيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ سبب تأليف هذه الرسالة الموجزة، وأن ذلك كان بسبب أن سائلًا طلب منه رسالة يعجل فيها المنفعة، وتكون مختصرة وجامعة، فكتب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الرسالة مع دعوات لمن طلب منه، ودعوات لعموم المسلمين، وهذا من جميل نُصحِهِ، وحُسنِ بيانه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ولعلك بهذا الاستهلال تدرك أن هذه الرسالة عبارة عن وصية جامعة، تجمع لك سلامة الدين والدنيا، وفيها نفع لك في أولاك وأخراك، وجاء بها رَحِمَهُ ٱللَّهُ

مختصرة، ونبَّه أنه يستدل بأبوابها علىٰ مفهوم خطابها، وهذا يدل علىٰ أن الأبواب الأربعة للرسالة التي اشتملت عليها حُرِّرت باعتناء، وجُمعت شواهدُها ودلائلُها بدقة وعناية.

❋ ❋ ❋

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ نَجَاةِ الإِنسَانِ بِالصَّمتِ وَحِفظِ اللِّسَانِ

١ - حَدَّثَنَا أَبُو الفتح مُحَمَّدُ بنُ أَحمَدَ بنِ أَبِي الفَوَارِسِ الحَافِظُ إِملَاءً، أَخبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ مُحَمَّدُ بنُ أَحمَدَ بنِ الحَسَنِ الصَّوَّافُ قَالَ: حَدَّثَنا عَبدُ اللهِ بن أَحمد بن حَنبَلٍ: حَدَّثَنِي أَبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حَدَّثَنَا إِسحَاقُ بنُ عِيسَىٰ: حَدَّثَنِي ابنُ لَهِيعَةَ، عَن يَزِيدَ بنِ عَمرٍو، عَن أَبِي عَبدِ الرَّحمَنِ الحُبُلِيِّ، عَن عَبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن صَمَتَ نَجَا».

الشرح

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**باب نجاة الإنسان بالصمت وحفظ اللسان**»؛ هذا الباب عقده رَحِمَهُ اللَّهُ لبيان عِظَم شأن اللسان وخطورته؛ وذلك أن اللسان عليه المدار، وهو مِلاكُ أمر العبد، فمتىٰ مَلَكَ العبد لسانه، ملك جميع أعضائه، وإذا لم يصنه هلك، وهلكت تبعًا لذلك جميع أعضائه، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا أَصبَحَ ابنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ، فَتَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا، فَإِنَّمَا نَحنُ بِكَ؛ فَإِنِ استَقَمتَ استَقَمنَا، وَإِنِ اعوَجَجتَ اعوَجَجنَا**»[١].

فاللسان ملاك الأمر وعليه المدار[٢]، فمن صان لسانه وحفظه، فقد حفظ

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٠٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٠٥٠١).

(٢) «أعظم الجوارح اختراقًا للحرمات هو (اللسان) في حالتيه:
=

نفسه وصانها، ومن أطلق للسانه العنان، وتركه يتكلم بدون قيد أو شرط، أهلك نفسه وأعطبها، ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**نجاة الإنسان بالصمت وحفظ اللسان**».

أما أن نجاته بالصمت؛ فهذا منصوص الحديث الذي صدَّر به رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الترجمة، وأما أن النجاة بحفظه، فالمراد حفظه مما يسخط الله ويغضبه -جل في علاه-؛ فهذا تأتي شواهده ودلائله التي ساقها رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صدر هذه الترجمة حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «**مَن صَمَتَ نَجَا**»(١).

والمراد بـ «**صمت**»؛ أي: سكت ومنع نفسه من الكلام، وليس المراد بالمنع -منع النفس من الكلام-؛ أي: مطلقًا لا يتكلم.

فإن هذا ليس مطلوبًا شرعًا، بما في ذلك ذكرُ الله وحمدُه، والثناءُ عليه، وغيرُ ذلك؛ بل هذا فيه مخالفة للشرع، **لكن الصمت المطلوب**: هو الصمت عن الشر، وعن السوء.

=

متلفظًا، متكلمًا بمحرم، أو مكروه، أو فضول، وما جرىٰ مَجرىٰ هذه الآفات من: (حصائد اللسان) و (قوارص الكلام) بدوافع: التعالي، والخِفَّة، والطَّيش، والغضب ...

وفي حالته ساكتًا عن حقٍّ، واجب، أو مستحب، بدافع: محرم، أو مكروه، كالمداهنة، والمجاملة، والملاينة، وربما تحت غِطاءِ: غضِّ النظر، والتَّعقُّل، وإكساب النفس ميزان الثقل، والتأني، ومعالجة الأمور.

وهكذا من مقاصد توضع في غير مواضعها، ونِيَّاتٍ تُبرقع بغير براقعها، والله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه». «معجم المناهي اللفظية» (ص٢١).

(١) رواه الترمذي (٢٥٠١)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٨٧٤).

والصمت كذلك عما يشتبه علىٰ الإنسان؛ إذا كان لا يدري أهو خير أم شر، لأن ما يريد التكلم به لابد أن يتفكر فيه، فإذا تبين أنه خيرٌ بيِّن؛ تكلم به ولا حرج، وإن تبيَّن أنه شر بيِّن؛ منع نفسه من التكلم به، وإن لم يتبين له أهو خير أو شر؛ فإنه أيضا يمنع نفسه من التكلم به، لقولهﷺ: «**فمن اتَّقىٰ الشُّبُهات؛ فقد استبرَأَ لدينِه وعرضِه، ومن وقعَ في الشُّبهاتِ؛ وقع في الحرَام**»(١).

ثم إنَّ الإنسان -عملًا بهذا الحديث- لو منعَ نفسهُ مما لا بأس به من الكلام، من مباح الكلام خشية أن يَزِلَّ، أو تخرج منه كلمة لم ينتبه لها، أو لم يُلق لها بالًا؛ فآثر الصمت علىٰ الكلام، فَفِعلُه هذا يُعدُّ نجاة، لكن أعلىٰ منه رتبة، وخيرٌ منه منزلة، من يتكلم لكنه يضبط كلامه، فإذا تكلم بخير ونصح ونفع وإفادة؛ فكلامه غنيمة، وإذا سكت؛ فسكوته سلامة، وإذا تكلم بشر؛ فكلامه هلكة، **فصارت ثلاثة منازل**: غنيمة وسلامة وهلكة، خير هذه المنازل منزلة الغنيمة، أن يتكلم بما ينتفع به، بما يفيد الناس وينفعهم، في دينهم ودنياهم.

كما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نصحه للسائل: «**رسالة تنفعك في أولاك وأخراك**»، عندما يتكلم الإنسان، أو حتىٰ لما يكتب من خلال الوسائل الحديثة التي استجدت في هذا الزمان، وهي متنوعة وكثيرة، وأصبح لابد أن يكون لكثير من الناس من مشاركة فيها يوميًّا، وربما مرات كثيرة في اليوم، فهذا الذي يكتب هو جزء من كلامه الذي يحاسبه الله عليه يوم يقف بين يديه، وإن كان بعض الناس ربما

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

يكتب من خلال هذه الوسائل باسم مجهول علىٰ الناس، ولكنه لا يخفىٰ علىٰ رب العالمين، قال تعالىٰ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، وإن استخفىٰ من الناس باسم مجهول؛ فالله مطَّلع عليه وعليم بما يقول، وسيرىٰ حصاد ما كتب وتكلم به يوم يقف بين يدي الله ﷻ.

قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصمت زَين العالم، وستر الجاهل»[(١)].

«**الصمت زين العالم**»: أي: جمالٌ له.

«**وستر الجاهل**»: أي: أنَّ جهله لا يظهر، لكن لو خاض في المجالس وترك لنفسه الكلام والخوض في الأمور والمسائل؛ تبين ما يحمله من جهل، ولو صمت لنجا وسَلِم في الوقت نفسه.

إذن قوله ﷺ: «**مَن صَمَتَ نَجَا**»، أي: سَلِم؛ تحقَّقت له السَّلامة، وأَمِن مِن الهلكة.

والمقصود بالصَّمت؛ أي: الصمت عن الكلام فيما لا يعنيه، وفيما يضره يوم يلقىٰ الله ﷻ.

❁ ❁ ❁

(١) «حلية الأولياء» (٧/ ٨٢).

٢- حَدَّثنا أَبُو الحُسَينِ عَلِيُّ بنُ مُحَمَّدِ بنِ عَبدِ اللهِ بنِ بِشرَانَ السُّكَّرِيُّ المُعَدَّلُ، أَخبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ إِسمَاعِيلُ بنُ مُحَمَّدٍ الصَّفَّارُ قَالَ: حَدَّثنَا الرَّمَادِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبدُ الرَّزَّاقِ، أَخبَرَنَا مَعمَرٌ، عَنِ الزُّهرِيِّ، عَن أَبِي سَلَمَةَ، عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَن كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ فَليَقُل خَيرًا أَو لِيَصمُت».

الشرح

أورد رَحِمَهُ اللهُ هنا حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»[(١)].

ذكر أوَّلًا الإيمان بالله؛ الذي هو جَلَّ جَلَالُهُ المقصود المعبود الملتجأ إليه -جلَّ في علاه-، واليوم الآخر؛ الذي هو يوم الجزاء والحساب، ثم ذكر ما يقتضيه هذا الإيمان الصادق بالله واليوم الآخر، قال: «**فليقل خيرًا أو ليصمت**»، ومعلوم أن المتكلم لا يمكن أن يتكلم بهذا الانضباط، ولا يقول إلَّا خيرًا، إلَّا إذا كان يزن كلامه قبل أن يتكلم به، ويتفكر فيه ويتأمل قبل الكلام به، أما من لا يزنه، ويتكلم بما يرد في ذهنه دون تفكُّر وتأمُّل، لا شك أنه سيخرج منه من الكلام الآثم والقول الخاطئ شيء كثير، وربما لا يُلقي لذلك بالًا ولا يضرب له حسابًا.

وهذا الذي أهلك أكثر الناس، وأوردهم المهالك، وقد كان السلف -رحمهم الله-، مع احترازهم وحرصهم، يهتمون بحفظ ألسنتهم، حتىٰ يقول القائل

(١) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

منهم كما يُنقل عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه كان يجبذُ لِسَانَه ويقولُ: «إنَّ هَذَا أَورَدَنِي المَوَارِد»(١).

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيرُهُ، مَا عَلَىٰ الأَرضِ شَيءٌ أَحوَجُ إِلَىٰ طُولِ سَجنٍ مِن لِسَانٍ»(٢).

ونحو ذلك الكلام، وهم من أحسن الناس صيانة لألسنتهم، وحفظًا لها، وفي الناس اليوم من لا يبالي ولا يعتني بلسانه، ولا يحرص علىٰ صيانته وحفظه.

إذن قوله: «**فليقل خيرًا**»، هذا فيه دعوة واضحة إلىٰ أن تتأمل في كلامك، هل هو خير أو شر؟، فإن تبيَّن أنَّه خير قُلْهُ؛ قل هذا الكلام الذي صَوَّرته في نفسك، وإن تبيَّن أنه شر فاحذره أشد الحذر؛ لأنه سيدخل في سيِّئ عملك، ويحاسبك الله ﷻ عليه، وإن اشتبه عليك -كما تقدم-: «**فمن اتقىٰ الشبهات، فقد استبرأ لدينه وعرضه**».

قال: «**فليقل خيرًا أو ليصمت**»؛ أي: ليمنع نفسه من التكلم بهذا الكلام الذي أراد أن يقوله، ولم يتبين له أنه خير، فالواجب عليه أن يصمت، ما لم يتبين له أن هذا الكلام الذي سيتكلم به خير له، **ولهذا قال العلماء**: لا يُؤمر بالكلام

(١) رواه مالك في «الموطأ» (١٧٨٨)، وأحمد في «الزهد» (ص١١٢)، وابن أبي الدنيا في «الصمت وآداب اللسان» (١٣).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٦٤٩٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٤).

مطلقًا، ولا بالسكوت علىٰ الإطلاق، بل لابد من الكلام بالخير، والسكوت عن الشر[١].

وكان السلف -رحمهم الله- يمدحون الصمت عن الشر، وعما لا يعني؛ لشدته علىٰ النفس؛ فهو أمر شديد؛ أن يصمت الإنسان عن الشر، أو يمنع نفسه من التكلم فيما لا يعنيه، فكانوا يمدحون من كان كذلك؛ لأن كثيرًا من الناس يقع في هذا الأمر، و قد لا يصون نفسه عن الوقوع فيه، إلَّا من وَفَّقه الله سبحانه وأعانه علىٰ ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالتكلم بالخير خير من السكوت عنه، والصمت عن الشر خير من التكلم به، فأما الصمت الدائم فبدعة منهيٌّ عنها»[٢].

ومما يُنقل عن عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «ويحك! قُل خيرًا تغنم، أو اسكت عن سُوءٍ تسلم، وإلَّا فاعلم أنَّك ستندم»[٣].

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَالأَحَادِيثُ فِي فَضَائِلِ الصَّمتِ كَثِيرَةٌ، وَكَذَلِكَ فِي فَضَائِلِ التَّكَلُّمِ بِالخَيرِ، وَالصَّمتِ عَمَّا يَجِبُ مِن الكَلَامِ حَرَامٌ، سَوَاءٌ اتَّخَذَهُ دِينًا أَو لَم يَتَّخِذهُ، كَالأَمرِ بِالمَعرُوفِ وَالنَّهيِ عَن المُنكَرِ، فَيَجِبُ أَن تُحِبَّ مَا أَحَبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَتُبغِضَ مَا يُبغِضُهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَتُبِيحَ مَا أَبَاحَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَتُحَرِّمَ مَا حَرَّمَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ». «مجموع الفتاوىٰ» (٢٥/ ٢٩٤).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (١١/ ٢٠٠).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٤٤٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٩٣٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٠٧).

فهذا الحديث جاء بأمرين: إما التكلم بخير، أو السكوت عما سوىٰ ذلك.

ولابد من المراقبة، مراقبة الله في التكلم، وكذلك في السكوت، فيهما معًا.

إذا تَكَلَّمتَ فاذكر سَمْعَ الله لك، وإذا سَكَتَّ فاذكر نظره ﷻ إليك، لتكون مُتَّقيًا لله في سكوتك وفي كلامك.

❊ ❊ ❊

٣- أَخبَرَنَا عَبدُ اللهِ بنُ يَحيَىٰ بنِ عَبدِ الجَبَّارِ السُّكَّرِيُّ، أَخبَرَنَا إِسمَاعِيلُ بنُ مُحَمَّدٍ الصَّفَّارُ قَالَ: حَدَّثنا عَبَّاسٌ الدُّورِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا أبو عاصم عَن مُحَمَّدِ بنِ عَجلَانَ، عَن أَبيهِ، عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَن كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ فَليَقُل خَيرًا أَو لِيَسكُتْ».

الشرح

هذه روايةٌ أخرىٰ لحديث أبي هريرة ﷺ، وفيها قال: «**أو ليسكت**»(١)، بدل قوله: «**أو ليصمت**»(٢).

قال الراغب: «الصمت: أبلغ من السكوت؛ لأنه قد يستعمل فيما لا قوة له للنطق، وفيما له قوة للنطق، ولهذا قيل لِمَا لا نطق له: الصامت»(٣).

كان العرب يفرقون بين الأموال، ويقسمونها إلىٰ قسمين: أموال صامتة، وأموال ناطقة.

يقصدون بالأموال الناطقة مثل: بهيمة الأنعام، كل ما كان له صوت من المال.

ويقصدون بالصامت؛ أي: الذهب والفضة، ونحو ذلك من الأموال التي ليس لها صوت، وليس لها كلام، فيقولون: مال صامت ومال ناطق.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٦)، ومسلم (٤٧).

(٢) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

(٣) «مرقاة المفاتيح» (١٤/ ١١٠).

والتعبير عن المال الذي لا صوت له بأنه صامت جاء في حديث أبي هريرة ﵁ قَالَ: «قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَومٍ فَذَكَرَ الغُلُولَ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمرَهُ، ثُمَّ قَالَ: لَا أُلفِيَنَّ أَحَدَكُم يَجِيءُ يَومَ القِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ. يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثنِي، فَأَقُولُ: لَا أَملِكُ لَكَ شَيئًا قَد أَبلَغتُكَ، لَا أُلفِيَنَّ أَحَدَكُم يَجِيءُ يَومَ القِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمحَمَةٌ. فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثنِي. فَأَقُولُ: لَا أَملِكُ لَكَ شَيئًا قَد أَبلَغتُكَ، لَا أُلفِيَنَّ أَحَدَكُم يَجِيءُ يَومَ القِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثنِي، فَأَقُولُ: لَا أَملِكُ لَكَ شَيئًا قَد أَبلَغتُكَ، لَا أُلفِيَنَّ أَحَدَكُم يَجِيءُ يَومَ القِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ نَفسٌ لَهَا صِيَاحٌ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثنِي، فَأَقُولُ: لَا أَملِكُ لَكَ شَيئًا قَد أَبلَغتُكَ، لَا أُلفِيَنَّ أَحَدَكُم يَجِيءُ يَومَ القِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخفِقُ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثنِي، فَأَقُولُ: لَا أَملِكُ لَكَ شَيئًا قَد أَبلَغتُكَ، لَا أُلفِيَنَّ أَحَدَكُم يَجِيءُ يَومَ القِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ صَامِتٌ. فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثنِي، فَأَقُولُ: لَا أَملِكُ لَكَ شَيئًا قَد أَبلَغتُكَ»(١).

والمراد بقوله: «لَا أُلفِيَنَّ أَحَدَكُم يَجِيءُ يَومَ القِيَامَةِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ صَامِتٌ»؛ أي: المال الصامت مثل الذهب والفضة استلبها وغلها في الحياة الدنيا، فإنه يأتي -والعياذ بالله- يحمل ما غَلَّ فوق عنقه يوم القيامة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١].

❁ ❁ ❁

(١) رواه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١).

٤- أَخبَرَنَا أَبُو الفَضلِ عَبدُ الوَاحِدِ بنُ عَبدِ العَزِيزِ بنِ الحَارِثِ التَّمِيمِي رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحمَدُ بنُ سُلَيمَانَ الفَقِيهُ النَّجَّادُ قَالَ: حَدَّثَنَا بِشرُ بنُ مُوسَىٰ، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بنُ عَمرٍو قَالَ: حَدَّثَنَا زَائِدَةُ، عَنِ الأَعمَشِ، عَن يَزِيدَ بن حَيَّان، عَن عَنبَسِ بنِ عُقبَةَ قَالَ: قَالَ عَبدُ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا عَلَىٰ وَجهِ الأَرضِ أَحوَجُ إِلَىٰ طُولِ سَجنٍ مِن لِسَانٍ».

الشرح

هذا أثر عظيم[١] أورده المصنف رَحِمَهُ اللهُ، عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنهُ، يُقسِم فيه بالله الذي لا إله إلا هو أنه ما علىٰ وجه الأرض أحوج إلىٰ طول سجن من لسانٍ، وذلك لعظم خطورته، وأنه إن أطلق صاحبه له العِنَانَ يتكلم متىٰ شاء بما شاء بدون ضابط وبدون قيد؛ فإنه يهلك صاحبه؛ لأن كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلَّا ما كان من ذكر لله، وأمر بالمعروف، ونهي عن منكر، وما والىٰ ذلك، أما إذا كان يتكلم بدون قيد فيخرج من كلامه كلامًا محرَّمًا منهيًّا عنه؛ فهذا من أخطر ما يكون مضرَّة علىٰ الإنسان وهلكة له في دنياه وأخراه؛ ولهذا يقسِم هذا القَسم؛ ليبين خطورة اللِّسان بأنَّه ليس علىٰ وجه الأرض أحوج إلىٰ طول سجن من اللِّسان.

ومراده بطول السَّجْن: أي: منع اللِّسان من إخراج الكلام إلَّا إذا تبيَّن له سلامته، وأنَّه خيرٌ لا شرَّ فيه؛ فإنَّه يتكلم، وما سوىٰ ذلك يطبِق عليه ويمنعه من

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٦٤٩٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٤).

الخروج، **وقد أُعِين علىٰ سجنه للسانه ومنعه من التكلم بطباقين:** الأسنان، والشفتين، فهذه حواجز، تحجز الكلام وتمنعه، فلا يخرج منه إلَّا الذي يتحقق أنه خير لا شر فيه، وما سوىٰ ذلك فليحبس لسانه وليمنعه من الكلام؛ صيانة لنفسه من الهلكة.

❊ ❊ ❊

٥- أَخبَرَنَا أَبُو الحَسَنِ بنُ مُحَمَّدِ بنِ أَحمَدَ بنِ مُحَمَّدِ بنِ رزقويه البَزَّاز، أخبرنَا إِسمَاعِيل بن مُحَمَّدٍ الصَّفَّارُ، حَدَّثَنَا أَحمَدُ بنُ مَنصُورٍ الرَّمَادِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو أَحمد الزبيرِي قَالَ: حَدثنَا عمرو بن عَبدِ اللهِ النَّخَعِيُّ قَالَ: حَدَّثنَا أَبُو عَمرٍو الشَّيبَانِيُّ، عَن مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ ﵁ قَالَ: قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنُؤَاخَذُ بِكُلِّ مَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتكَ أُمُّكَ ابنَ جَبَلٍ، وَهَل يَكُبُّ النَّاسَ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِم فِي جَهَنَّمَ إِلَّا حَصَائِدُ أَلسِنَتِهِم؟».

الشرح

أورد هنا هذا الحديث العظيم[١]، حديث معاذ بن جبل ﵁، وهو حديث طويل ذكر المصنف منه موضع الشاهد، والحديث بطوله هو الحديث التاسع والعشرون من أحاديث الأربعين للإمام النووي ﵀، واقتصر المؤلف ﵀ علىٰ تمام الحديث وآخره، وهو موضع الشاهد منه لهذه الترجمة.

«قال: عن معاذ بن جبل ﵁: قلت يا رسول الله، أنؤاخذ بكل ما نتكلم به؟»:

هل يحاسبنا الله يوم نقف بين يديه علىٰ جميع الكلام الذي تكلمنا به في حياتنا الدنيا؟، هذا السؤال من معاذ ﵁ مبني علىٰ كلام من النَّبي ﷺ قبل ذلك في آخر وصاياه، قال ﷺ: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟**»، لمَّا أعطاه الوصايا الجامعة والنَّصائح البليغة، ختم ذلك ﷺ بقوله: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟**».

(١) رواه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٢٠٩).

قال: قلت: بلىٰ يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: «**كف عليك هذا**»، هذا ملاك الأمر، كف عليك هذا، قال: قلت يا رسول الله، أنؤاخذ بكل ما نتكلم به؟، لمَّا قال له النَّبيُّ ﷺ: «**كف عليك هذا**»؛ يعني: إذا كففتَ اللِّسان ومنعته فهذا ملاك الأمر.

ما معنىٰ ملاك الأمر؟: أي: أنَّ الزِّمام أصبح بيدك، وأنت الذي تملك.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لصاحبه الربيع: «يا ربيع، لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها»[1]؛ أي: تصبح متحملًا تبعة هذه الكلمة، بينما إذا أمسكتَ الكلام، وصُنتَ نفسك عن الخوض فيما لا يعني أو فيما هو محرم؛ فإنك أخذت بملاك الأمر وأخذت بالزمام، ولهذا جاء معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بهذا السؤال، قال: قلت: يا رسول الله، أنؤاخذ بكل ما نتكلم به؟ فقال: «**ثكلتك أمك ابن جبل**».

ومعنىٰ ثكلتك؛ أي: فقدتك، وهذا من الكلام الذي يُطلق ولا يراد حقيقته، يعني: ظاهره الدعاء ولا يراد حقيقته، يقول ﷺ: «**وهل يكب الناس علىٰ مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم؟**».

قال: «**حصائد ألسنتهم**»، أي: ما يقتطعه من الكلام، شبه بما يُحصد من الزرع إذا جُزَّ؛ أي: إذا تكلم الإنسان كأنه وضع بذورًا يجد حصادها يوم يقف بين يدي الله عَزَّ وَجَلَّ، هنا يأتي المحك في الامتحان؛ لأن الدنيا دار ابتلاء وامتحان،

---

(١) «الأذكار» (ص٣٣٥).

وكلنا يعلم أن الكلام لدىٰ جميع الناس في كثير من المجالس نوع من الفاكهة، نوع من تمضية الوقت، نوع من التسلية، وهذا أمر تطلبه النفوس وتريده، ولهذا يجتمع الناس علىٰ هذه الفاكهة: الكلام، ويجلس بعضهم الساعتين والثلاث؛ بل و الأربع، يتكلمون ويتكلمون ويشعر أنه بكلامه هذا يتفكه ويتمتع ويتلذذ، فهو أمر تطلبه النفس، وتشتهيه، **وهنا يأتي الامتحان**: كيف يستطيع الإنسان أن يقبض نفسه، وهو سيؤاخذ يوم القيامة بكل ما سيتكلم به؟! وتأمل جيدًا إلىٰ كلام عظيم جدًّا من الإمام الناصح المربي الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنَّ المعاصي فاكهة الإنسان؛ كالنميمة، والغيبة، والكذب، والمراء، والثَّناء علىٰ النَّفس تعريضًا وتصريحًا، وحكاية كلام الناس -يعني: يحاكي كلام فلان وفلان علىٰ سبيل التندُّر والتفكُّه-، والطَّعن علىٰ من يبغضه، ومدح من يحبُّه، ونحو ذلك، فتتفق قوة الدَّاعي -في نفس الإنسان علىٰ التكلم بهذه الأشياء-، وتيسر حركة اللِّسان فيضعف الصَّبر»(١).

الداعي من الداخل قوي لكي يتكلم بمثل هذه الأمور علىٰ سبيل التفكه، وَمَلْءِ الوقت، وشغل الفراغ، قوة الداعي في داخلة الإنسان قوية جدًّا، وحركة اللسان يسيرة، وتيسر حركة اللسان فيضعف الصبر.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ولهذا قال ﷺ لمعاذ: «وهل يكب الناس علىٰ مناخرهم في جهنم إلا حصائد

(١) «عدة الصابرين» (ص٥٦).

ألسنتهم؟»، ولاسيما إذا صارت المعاصي اللسانية معتادة للعبد؛ فإنَّه يعزُّ عليه الصَّبر عنها، ولهذا تجد الرَّجل يقوم اللَّيل ويصوم النَّهار ويتورَّع من استناده إلىٰ وسادة حرير لحظة واحدة ويطلق لسانه في الغيبة والنميمة والمفكهة في أعراض الخَلْقِ!».

❊ ❊ ❊

٦- أَخبَرَنَا أَبُو طَاهِرٍ عَبدُ الغَفَّارِ بنُ مُحَمَّدِ بنِ جعفرِ بنِ زَيدٍ المُؤَدِّبُ، أَخبَرَنَا أَبُو علِيِّ بنُ الصَّوَّافِ قَالَ: حَدَّثنَا عَبدُ اللهِ بنُ أَحمَدَ بنِ حَنبَلٍ: حَدَّثنِي أَبِي قَالَ: حَدَّثنَا حَسَنُ بنُ مُوسَىٰ: حَدَّثنَا حَمَّادُ بنُ سَلَمَةَ، عَن عَلِيِّ بنِ زَيدٍ وَيُونُس ابن عُبَيدٍ وَحُمَيدٍ، عَن أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «المُسلِمُ مَن سَلِمَ المُسلِمُونَ مِن لِسَانِهِ وَيَدِهِ».

الشرح

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث، حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**المسلم مَن سَلِم المسلمون من لسانه ويده**»(١).

ويراد بالمسلم؛ أي: كامل الإسلام، **ومعلوم أن الدين مراتب: إسلام**، وأعلىٰ منه إيمان، وأعلىٰ منه إحسان؛ وقد جمعت هذه المراتب الثلاثة في حديث جبريل المشهور عندما سأل النَّبيَّ ﷺ عن الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان؛ فبيَّن في ذلك الحديث العظيم كل مرتبة من هذه المراتب الثلاث(٢).

---

(١) رواه البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠) من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) قال الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد البدر -حفظه الله-: «الإحسانُ والإيمانُ والإسلام درجات، فأعلىٰ الدرجات الإحسان، ودونه درجة الإيمان، ودون ذلك درجة الإسلام، فكلُّ محسن مؤمن مسلم، وكلُّ مؤمن مسلم، وليس كلُّ مؤمن محسنًا، ولا كلُّ مسلم مؤمنًا محسنًا، ولهذا جاء في (سورة الحجرات): ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾». «شرح حديث جبريل في تعليم الدين» (ص٧٣).

فهذا بيان للمسلم كامل الإسلام؛ أنه من سلم المسلمون من لسانه ويده، فالإسلام معه السلامة؛ أي: إذا كان مسلمًا كامل الإسلام لا يؤذي أحدًا لا بلسانه ولا بيده، والنقص إذا وُجِد منه الأذىٰ القولي أو الفعلي تجاه إخوانه المسلمين.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه علىٰ هذا الحديث: «أي: فهذه صفة المسلم، فمن خرج عنها خرج عن الإسلام، ومن خرج عن بعضها خرج عن الإسلام في ذلك البعض»[1]، بمعنىٰ: أنه إذا كان يوجد منه الأذىٰ القولي أو الفعلي لإخوانه المسلمين فهذا نقص في إسلامه.

إذن المسلم الكامل الإسلام: هو من سلم المسلمون من لسانه ويده، ورتبة الإيمان أعلىٰ من هذه الرتبة حتىٰ في هذا الباب؛ ولهذا الحديث في بعض رواياته له تتمة، قال ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس علىٰ دمائهم وأموالهم**»[2]، ولا شك أن من يكون في قلوب الناس أمن من جهته، يأتمنونه علىٰ أموالهم ودمائهم، لا شك أن هذه رتبة أعلىٰ من رتبة شخص سلم المسلمون من لسانه ويده، بمعنىٰ: أنه لا يصلهم منه شر ولا ينالهم منه أذىٰ.

ففسر المسلمَ بأمرٍ ظاهر، وهو سلامة الناس من لسانه ويده، وفسر المؤمنَ بأمرٍ باطن، وهو أنهم يأمنونه علىٰ دمائهم وأموالهم، ولا شك أن الصفة الثانية -وهي أنهم يأمنونه علىٰ دمائهم وأموالهم- أعلىٰ من الصفة الأولىٰ.

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٢٥/ ١٦٥).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٢٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧١٠).

٧- أَخبَرَنَا أَبُو القَاسِمِ عَبدُ الرَّحمَنِ بنُ عُبَيدِ اللهِ السِّمسَارُ الحُرفِيُّ، أَخبَرَنَا أَحمَدُ بنُ سَلمَانَ النَّجَّادُ، أَخبَرَنَا هِلَالُ بنُ العَلَاءِ قَالَ: حَدثنَا عمرو بنُ عُثمَانَ: حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بنُ أَعيَنَ، عَن عَبدِ اللهِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عُقَيلٍ، عَن جَابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَن حَفِظَ مَا بَينَ فُقمَيهِ وَرِجلَيهِ دَخَلَ الجَنَّةَ».

الشرح

أورد رحمه الله هذا الحديث عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من حفظ ما بين فقميه...**»، وهذا موضع الشاهد من سياق هذا الحديث من هذه الترجمة، والمراد بـ «**فقميه**»: أي لحييه؛ ولهذا جاء في بعض الروايات قال رسول الله ﷺ: «**من حفظ ما بين لحييه...**»(١)، أي: حفظ فمه ولسانه من التكلم بالحرام وقول الحرام، وصانه عن ذلك كله، فإن ذلك من موجبات دخول الجنة بإذن الله.

قوله ﷺ: «**من حفظ ما بين فقميه ورجليه دخل الجنة**»، والمراد بـ «ما بين رجليه»؛ أي: فرجه، من نحو الزِّنا، واللِّواط والسِّحاق، وغير ذلك -والعياذ بالله-.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾[المؤمنون:٥-٧].

❊ ❊ ❊

(١) رواه الحاكم في «مستدركه» (٨٠٥٨)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٥١٠)، وأصله في صحيح البخاري (٦٤٧٤) بلفظ: «**من يضمن لي ما بين لحييه...**».

٨- أَخبَرَنَا أَبُو مَنصُورٍ مُحَمَّدُ بنُ رَامِشٍ -قَدِمَ عَلَينَا الحَجَّ-، أَخبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ الحَسَنُ بنُ أَحمَدَ بنِ شَيبَانَ المُعَدَّلُ، أَخبَرَنَا مُحَمَّدُ بنُ إِسحَاقَ قَالَ: حَدَّثَنَا قُتَيبَةُ بنُ سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ اللَّيثُ بن سعد: مَرُّوا بِرَاهِبٍ فَنَادَوهُ فَلَم يُجِبهُم، ثُمَّ عَادُوا فَنَادَوهُ فَلَم يُجِبهُم، فَقَالُوا لَهُ: لِمَ لَا تُكَلِّمُنَا؟ فَاطَّلَعَ عَلَيهِم وَقَالَ: يَا هَؤُلَاءِ، إِنَّ لِسَانِي سَبُعٌ، وَإِنِّي أَخَافُ أَن أُرسِلَهُ فَيَأكُلَنِي».

الشرح

ثم أورد هذا الخبر عن الليث بن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر خبر الراهب، والرهبان المراد بهم: عُبَّاد النصارىٰ، ومعنىٰ ذلك: أنهم مرُّوا براهب متعبد منقطع للعبادة في صومعته، نادوه فلم يجبهم؛ يعني: لم يكن عنده رغبة في التَّكلُّم والحديث، فلما ألحوا عليه: «**وقالوا له: لِمَ لا تُكلمنا؟ فاطَّلَع عليهم وقال: يا هؤلاء، إن لساني سَبُع، وإنِّي أخاف أن أُرسله، فيأكلني**».

قوله: «**أن أرسله**»: أي: أتركه يتكلم بدون تقيُّد.

«**فيأكلني**»: أي: يهلكني، وأتحمل تبعاتٍ عظيمة فيما أقوله من كلام.

ومثل هذه الأخبار يوردها أهل العلم علىٰ سبيل الاستئناس لا علىٰ سبيل الاعتماد، فالعمدة كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

ومما روي في هذا المعنىٰ عن الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: قيل لحذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: مالك لا تتكلم؟ قال: «إن لساني سَبُع أتخوف إن تركته يأكلني»(١).

(١) «تاريخ دمشق» (١٢/ ٢٩٢).

وقيل لبعض العلماء: إنك تطيل الصمت، فقال: «إني رأيتُ لساني سَبُعًا عقورًا أخاف أن أُخلي عنه فيعقرني»[(١)].

❊ ❊ ❊

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت وآداب اللسان» (٦٥٥).

٩ - وَأَنشَدُونَا فِي مَعنَاهُ:

احفَظ لِسَانَكَ أَيُّهَا الإِنسَانُ لَا يَلدَغَنَّكَ إِنَّهُ ثُعبَانُ
كَم فِي المَقَابِرِ مِن قَتِيلِ لِسَانِهِ كَانَت تَهَابُ لِقَاءَهُ الفُرسَانُ

الشرح

أورد هذا البيت في معنىٰ ما تقدم؛ أي: أن اللسان كالسَّبُع، يُخشَىٰ علىٰ صاحبه إن أرسله وأطلق له العنان أن يهلكه، أنشدوا في هذا المعنىٰ:

«**احفظ لسانك أيها الإنسان**»: أي: صنه عن التكلم فيما لا يعنيك مما حرم الله سبحانه وتعالى عليك.

«**لا يلدغنك إنه ثعبان**»: أي: إنك إن أطلقت له العنان يتكلم بدون ضابط فإنه يقتلك ويصيبك بمقتل ويهلكك، فاحذر ذلك أشد الحذر.

ثم بيَّن أن في المقابر خلقًا كثيرًا هم من قتلىٰ اللسان؛ لأنهم لم يصونوا ألسنتهم في حياتهم الدنيا، وهم أيام حياتهم لهم هيبة ولهم سطوة ولهم مكانة عند الناس، لكنهم بعد أن غادروا هذه الحياة أصبحوا قتلىٰ ألسنتهم؛ لأنهم كانوا يتكلمون بألسنتهم بلا ضابط، ودون رعاية ولا صيانة لألسنتهم.

* * *

١٠ - أَنشَدَنَا أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ المُظَفَّرِ بن بَدرٍ الشَّافِعِيُّ البَندَنِيجِيُّ بِهَا، أَنشَدَنَا أَبُو النُّعمَان عَبدُ الأَعلَىٰ بنُ أُحمَدَ النَّجلِيُّ، أَنشَدَنَا الحُسَينُ بنُ أَحمَدَ بنِ بِسطَامٍ لِأَبِي نُوَاسٍ:

خَــلِّ جَنْبَــيْكَ لِــرَام ... وَامْــضِ عَــنهُ بِــسَلَامِ
مُتْ بِدَاءِ الصَّمْتِ خَيْرٌ ... لَـكَ مِـنْ دَاءِ الْكَـلَامِ
رُبَّمَـا اسْـتُفْتِحَ بالقَـو ... لِ مَغَالِـيقُ الْحِمَـامِ
رُبَّ قَـولٍ سَـاقَ آجَـا ... لِ قِـيَامٍ وَفِـئَامِ
إِنَّمَـا الـسَّالِمُ مَـنْ أَلْـ ... ـجَمَ فَـاهُ بِلِجَـامِ

الشرح

أورد هذه الأبيات لأبي نواس، وله ديوان مطبوع وأبيات وعظية؛ منها هذه الأبيات، يقول فيها:

خَــلِّ جَنْبَــيْكَ لِــرَام ... وَامْــضِ عَــنهُ بِــسَلَامِ

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢].

وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَىٰ السَّفِيهِ يَسُبُّنِي ... فَأَمُرُّ ثُمَّتَ قُلْتُ لَا يَعنِينِي

«**خل جنبيك لرام**»: إن مررت علىٰ إنسان سفيه أو سليط اللسان، أو جريء علىٰ التلفظ بالكلام البذيء، فلا تقف عنده، ولا تجارِه في سفهه، وإنما امض بسلام، امض بكرم: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢]. ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ

ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٣].

مُـتْ بِـدَاءِ الـصَّمْتِ خَيْـرٌ لَـــكَ مِـــنْ دَاءِ الْكَـــلَامِ

«**مت بداء الصمت**»؛ أي: الصمت عن السوء، وعن الشر، وعن السباب، وعن البذاء، ونحو ذلك.

«**خير لك من داء الكلام**»؛ أي: الكلام بالشر؛ لأن هذا هو الداء، أما الكلام في الخير فهو دواء ليس بداء.

ومراده بقوله: «**خير لك من داء الكلام**»: أي سيئ الكلام، فصمت الإنسان عن الشر خير من تكلمه به، فأن يموت علىٰ ذلك خير له من أن يموت وقد تكلم بكلمات هي شرور وآفات؛ فيتحمل تبعتها، وتكون عليه حسرة وندامة.

رُبَّمَـــا اسْـــتُفْتِحَ بالقـــو لِ مَغَالِـــيقُ الْحِمَـــامِ

وهذا فيه تبيان لخطورة الكلام، وأنه ربما نشأت مقاتلُ وحروبٌ طاحنة بسبب الكلام والتكلم؛ لأن أمره خطير ليس بالهين ولا بالسهل.

رُبَّ قَـــوْلٍ سَـــاقَ آجـــا لَ قِـــيَامٍ وَفِـــئَامِ

وفي «ديوانه»: «نيام وقيام»؛ أي: كم من أناس كانت آجالهم بسبب الكلام، تكلم بكلمة فكان بها موته، أو الاعتداء عليه، أو قتله، وقُتِلَ آخرون معه بسبب كلمة.

وكم من الشرور العظيمة التي تنشأ في المجتمعات وعلىٰ مستوىٰ الأفراد والجماعات بسبب الكلام!

إِنَّمَا السَّالِمُ مَنْ أَلْـ ـجَمَ فَاهُ بِلِجَامِ

والمراد باللجام: المعنويُّ لا الحسيُّ، بأن يمنع نفسه عن التكلم عما فيه مضرة عليه، وفيما هو إثم وباطل.

* * *

١١ - وَأَنشَدَنَا أَيضًا:

أنتَ مِنَ الصَّمتِ آمِنُ الزَّلَلْ وَمِنْ كَثيرِ الكَلامِ في وَجَلْ
لَا تَقُلِ القَولَ ثُمَّ تُتبِعُهُ يَا لَيتَ مَا كُنتُ قُلتُ لَم أَقُلْ

الشرح

هذا أيضًا من جميل وعظه ونصحه في أبياته، يقول: «**أنت من الصمت آمن الزلل**»: إذا لم تتكلم فقد أمنت من الوقوع في الزلل.

«**ومن كثير الكلام في وَجَل**»: إذا كنت تتكلم ستصبح في وجل تتحمل تبعات كلام لم تنتبه له لكثرته.

وإذا كنت كثير الكلام فأنت في وجل، أما مع الصمت فأنت آمن من الزلل.

ثم ينصح هذه النصيحة فيقول: امنع نفسك من الكلام خير من أن تتكلم، ثم بعدما تنتهي من الكلام تقول: يا ليتني ما قلت هذه الكلمة، ليتني ما تكلمت، وتأخذ نفسك في تأسف وندامة وفي اعتذار للآخرين.

لَا تَقُلِ القَولَ ثُمَّ تُتبِعُهُ يَا لَيتَ مَا كُنتُ قُلتُ لَم أَقُلْ

كثيرًا ما تأتي علىٰ ألسنة الناس، بينه وبين نفسه أحيانًا، وأحيانًا مع الآخرين، يتصل ويرسل: (أنا أعتذر)، (ما كنت أقصد)، وليتني والله ما تكلمت، وليتني ما حضرت المجلس الفلاني، فقد صدر مني كلام ما أحببت أن أقوله.

إذن مِن الخير للإنسان ألَّا يتكلم إلَّا بكلام يَطمئن إليه ويرتاح له، ويأنس به ويسعد، أما أنه يُطلق العِنَانَ فيتكلم بما شاء؛ فهذا مهلكة عليه، ومضرة في دنياه

وأخراه، ومن أجمل ما ورد في ذلك حديث النبي ﷺ: «**وَلَا تَكَلَّم بِكَلَامٍ تَعتَذِرُ مِنهُ**»(١).

ومعنىٰ ذلك: امنع نفسك من الكلام حتىٰ لا تحتاج أصلًا إلىٰ الاعتذار والتأسف للزلل الذي كان في كلامك.

❁ ❁ ❁

(١) رواه ابن ماجه (٤١٧١)، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٣٦٣).

١٢ - وَأَنشَدَنَا أَيضًا:

اسـتُرِ العِـيَّ مَـا اسـتَطَعتَ بِـصَمتٍ ... إِنَّ فِـي الـصَّمتِ رَاحَـةً لِلـصَّمُوتِ

وَاجعَـلِ الـصَّمتَ إِن عَيِيتَ جَـوَابًا ... رُبَّ قَـولٍ جَـوَابُهُ فِـي الـسُّكُوتِ

الشرح

وأيضًا من جميل نصحه يقول: «**استُرِ العِيَّ**»؛ والعي: الجهل، «**ما استطعت بصمت**»، «**إن في الصمت راحة للصموت**»: يرتاح الصامت الذي لا يتكلم إلا بكلام متزن ومنضبط، ومن يطيل الصمت يُؤتىٰ الحكمة؛ لأن الكلام الذي يقوله يخرج منه بِاتِّزَان واعتدال وانضباط وتروٍّ وتفكُّر فيه، فيقول: «**إن في الصمت راحة للصموت**».

«**واجعل الصَّمت إن عَيِيتَ جوابًا**»: إذا لم يكن عندك جواب فاجعل الصمت إن عييت جوابًا.

«**رب قول جوابه في السكوت**»: إذا لم يكن عندك معرفة فاجعل الصمت جوابا للسؤال الذي تُسألُ عنه، أما أن الإنسان يُسأل وليس عنده علم ولا بينة ثم يتكلم؛ فهذا مما لا ينبغي، والله يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

❊ ❊ ❊

١٣ – وَقَالَتِ الحُكَمَاءُ:

«مَثَلُ الكَلِمَةِ كَالسَّهمِ، لَا يُمكِنُ رَدُّهُ، وَإِنَّمَا جُعِلَ لِلإِنسَانِ لِسَانٌ وَاحِدٌ وَأُذُنَانِ حَتَّىٰ يَكُونَ مَا يَسمَعُ أَكثَرَ مِمَّا يَتَكَلَّمُ، وَهُوَ عَلَىٰ رَدِّ مَا لَم يَقُل أَقدَرُ مِنهُ عَلَىٰ رَدِّ مَا قَد قَالَ».

الشرح

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقالت الحكماء: مثل الكلمة كالسهم لا يمكن رده»: عندما يكون الإنسان في يده سهم ويرمي به ولم يَصِدْ، ثم يجد أنه قد اتجه إلىٰ إنسان وهو لا يريد أن يقتله، هل يستطيع أن يرد السهم وهو في طريقه إلىٰ الإنسان؟

الكلمة مثل السهم كذلك، إذا خرجت من لسانك لن تستطيع أن تسترجعها؛ لأنها إذا خرجت وقع أثرها، فأنت كنت تملكها قبل أن تخرج، لكن بعد أن خرجت وانطلقت من لسانك فَمَثَلُهَا كمثل السهم إذا انطلق لا يمكن لصاحبه أن يرده.

«وإنما جُعل للإنسان لسان واحد وأذنان، حتىٰ يكون ما يسمع أكثر مما يتكلم، وهو علىٰ رد ما لم يقل أقدر منه علىٰ رد ما قد قال»: الكلام الذي لم تقله أنت في عافية وفي فسحة وقادر علىٰ ردِّه، لكن إذا ذهب الكلام فيعسر رده؛ لأنك تحملت من ورائه تبعاتٍ وتبعاتٍ.

وهذا الكلام الذي أضافه إلىٰ بعض الحكماء موجود بنحوه في كتاب «روضة العقلاء» لأبي حاتم بن حبان البستي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا الكتاب علىٰ اسمه،

روضة مليئة بالفوائد الثمينة، جعله في خمسين بابًا، كل باب منها روضة مستقلة للعقلاء، فيه من الحكم البديعة والفوائد الثمينة الشيء الكثير.

يقول أبو حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الواجب علىٰ العاقل أن ينصف أذنيه مِن فيه، ويعلم أنه إنما جُعلَت له أذنان وفم واحد؛ ليسمع أكثر مما يقول، لأنه إذا قال ربما ندم، وإن لم يقل لم يندم، وهو علىٰ رد ما لم يقل أقدر منه علىٰ رد ما قال، والكلمة إذا تكلم بها ملكته، وإن لم يتكلم بها ملكها، والعجب ممن يتكلم بالكلمة إن هي رُفِعَت ربما ضرته، وإن لم تُرفَع لم تَضُرَّه، كيف لا يصمت؟! فرب كلمة سلبت نعمة!»[١].

❊ ❊ ❊

(١) «روضة العقلاء» (ص٤٥).

١٤- وَأَنشَدَنَا أَيضًا:

يَمُوتُ الفَتَىٰ مِن عَثرَةٍ بِلِسَانِهِ وَلَيسَ يَمُوتُ المَرءُ مِن عَثرَةِ الرِّجْلِ

فَعَثرَتُهُ مِن فِيهِ تُذهِبُ نَفسَهُ وَعَثرَتُهُ بِالرِّجْلِ تَبرَىٰ عَلَىٰ مَهلِ

الشرح

ثم أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذين البيتين في خطورة عثرة اللسان، وأنها أخطر من عثرة القدم، قال: «**يموت الفتىٰ من عثرة بلسانه**»؛ يعني: ربما أن كلمة يقولها تكون سببًا لهلاكه وموته.

«**وليس يموت المرءُ من عثرة الرجل**»: فعثرته من فيه، أي: من لسانه وفمه تذهب نفسه، وعثرته بالرجل تشفىٰ علىٰ مهل، فإذا تعثر وانكسرت رجله وأصيبت بأي نوع من أنواع الإصابات؛ فإنها تبرأ بإذن الله، أما عثرة اللسان فإنها مُهلِكَةٌ لصاحبها.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولما كانت العثرة عثرتين: عثرة الرجل، وعثرة اللسان، جاءت إحداهما قرينة الأخرىٰ في قول الله تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣]، فوصفهم بالاستقامة في لحظاتهم وخطواتهم»(١).

المشي الهون فيه السلامة من عثرة الرجل، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ فيه

(١) «الجواب الكافي» (ص١١٣).

السلامة من عثرة اللسان، فجمع في هذه الآية في وصف عباد الرحمن بالسلامة من العثرتين؛ عثرة الرِّجل وعثرة اللسان.

❊ ❊ ❊

بَابُ السُّكُوتِ وَلُزُومِ البُيُوتِ

١٥- أَخبَرَنَا أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ أَحمَدَ بنِ مُحَمَّدِ بنِ دَاوُدَ الرَّزَّازُ، أَخبَرَنَا أَبُو بَكرٍ الشَّافِعِيُّ، حَدَّثَنَا عَبدُ اللهِ بنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا دَاوُدُ بنُ عَمرِو بنِ زُهَيرٍ الضَّبِّيُّ، حَدَّثَنَا عَبدُ اللهِ بنُ المُبَارَكِ، عَن يَحيَىٰ بنِ أَيُّوبَ، عَن عُبَيدِ اللهِ بنِ زَحرٍ، عَنِ القَاسِمِ، عَن أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ عُقبَةُ بنُ عَامِرٍ رضي الله عنه: قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: «امْلِك عَلَيكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعكَ بَيتُكَ، وَابكِ عَلَىٰ خَطِيئَتِكَ».

الشرح

ثم أورد هذا الحديث[1]، حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال عقبة بن عامر رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله، ما النجاة؟

هذا سؤال عظيم جدًّا، وكان في مقدمة أولويات الصحابة رضي الله عنهم.

وثَمَّة في الأحاديث أحاديثُ كثيرة فيها هذا السؤال: ما النجاة؟ ما نجاة الأمر؟

قوله رضي الله عنه: «ما النجاة؟» هذا يدل علىٰ شدة حرص الصحابة رضي الله عنهم علىٰ النجاة، يريدون لأنفسهم السلامة، فيريد الواحد منهم أن ينجو، وأن يسلم، لا يتورط لا بأمر يتعلق بلسانه، ولا بأمر يتعلق بيده، لا ينال منه أحد أي مظلمة، بل يريد النجاة لنفسه، فيقول عقبة بن عامر رضي الله عنه: «يا رسول الله ما النجاة؟» ما الذي أنجو به؟ ما الذي

(١) رواه الترمذي (٢٤٠٦)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٩٠).

تكون به نجاتي يوم ألقىٰ الله ﷻ؟

فإذا كان هذا المطلب قائمًا في النفس، فنفس الإنسان تريد النجاة، تخاف من لقاء الله ﷻ، وتريد ما يكون به نجاتها في ذلك اليوم، فتبدأ مثل هذه الأسئلة، ويبدأ الحرص العظيم علىٰ ما تكون به السلامة، بخلاف من يمشي وهو لا يضرب حسابًا لأمر النجاة، ولا يفكر فيها يوم يقف بين يدي الله ﷻ !

قال: «**املك عليك لسانك...**»، وهذا نظير ما جاء في حديث معاذ رضي الله عنه المتقدم، قال: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟**».

«**املك عليك لسانك**»؛ أي: ليكن أمر لسانك وما يتكلم فيه أمرًا تملكه وتضبطه، وتصونه، فتحرص علىٰ ألا يخرج منك أيُّ كلام فيه مَضَرَّة عليك وهلكة لك.

«**املك عليك لسانك**»؛ أي: جاهد نفسك علىٰ صيانة اللسان وحفظه ومنعه من كل ما حرم الله ﷻ، وما يسخطه -جل في علاه-، **هذا الأمر الأول من أسباب النجاة.**

الأمر الثاني: «**وليسعك بيتك...**»؛ أي: لازم البيت ولا يكون خروجك منه إلَّا لما فيه مصلحة دينية أو دنيوية، وإذا خرجت قل الدعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ أنْ أَضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أَزِلَّ أو أُزَلَّ، أو أَظلِمَ أو أُظلَمَ، أو أَجهَلَ أو يُجهَلَ عليَّ**»[1]؛ لأنه في كل مرة تخرج من بيتك فإن هذه الأشياء مُتوقَّعة، ويُخشَىٰ

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٩٤)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣١٣٤).

عليك منها، إما ألَّا يحصل لك سلامة من الناس، أو لا يحصل للناس سلامة منك، فهذه كلها أشياء يُخشىٰ علىٰ الناس منك أن يقع شيء منك تجاههم، أو العكس أيضًا؛ يُخشَىٰ عليك من الناس.

«**وليسعك بيتك**»: بمعنىٰ: أن الإنسان يلزم بيته؛ وليس هذا معناه الامتناع عن الخروج؛ لأن من الخروج ما هو واجب، كالخروج إلىٰ الصلوات، والخروج إلىٰ طلب الأرزاق، قال تعالىٰ: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ [الملك:١٥]، فليس المراد: «وليسعك بيتك» أن تلزم بيتك، ولا تخرج منه، لكن يلازم الإنسان البيت ولا يكون خروجه من بيته إلَّا فيما تحقق منفعته ومصلحته الدينية والدنيوية.

قال: «**وَابْكِ عَلَىٰ خطيئتك**»، أي: ليكن عندك أَلَمٌ علىٰ ما كان منك من أخطاء وتقصير في جنب الله، وندم وتوبة إلىٰ الله ﷻ، وابكِ علىٰ خطيئتك.

فهذه الأمور الثلاثة جمعت نجاة الأمر: «**املك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك علىٰ خطيئتك**».

وَكانَ عروة بن مُجاهِدٍ يقولُ إذا حدَّث بهذا الحديث: «**أَلَا فَرُبَّ مَن لَا يَملِكُ لِسَانَهُ، وَلَا يَبكِي عَلَىٰ خَطِيئَتِهِ، وَلَا يَسَعُهُ بَيتُهُ**»(١).

وهنا اقتراح لطلبة العلم: أن يتولىٰ أحدهم جمع الأحاديث الواردة في هذا الموضوع: وهو ما يتعلق بالنجاة؛ مثلًا: سألت رسول الله عن النجاة؛ لأنه وردت في هذا المعنىٰ أحاديث عدة؛ فلو جُمِعَت في موضع واحد، واستُخلِصَت هذه المعاني التي جاءت عن النبيﷺ في بيان نجاة الأمر فسيكون نافعًا بإذن الله.

(١) «شعب الإيمان» (١٠/ ٤١٧).

١٦- أَخبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ الحَسَنُ بنُ أَحمَدَ بنِ إِبرَاهِيمَ بنِ شَاذَانَ، أَخبَرَنَا أَبُو عَمرٍو عُثمَانُ بنُ أَحمَدَ بنِ السَّمَّاكِ، حَدَّثَنَا جَعفَرُ بنُ مُحَمَّدٍ الخَيَّاطُ، حَدَّثنَا عَبدُ الصَّمَدِ بنُ يَزِيدَ الصَّائِغُ قَالَ: سَمِعتُ الفُضَيلَ بنَ عِيَاضٍ يَقُولُ: «فِي آخِرِ الزَّمَانِ عَلَيكُم بِالصَّوَامِعِ، قُلنَا: وَمَا الصَّوَامِعُ؟ قَالَ: البُيُوتُ؛ فَإِنَّهُ لَيسَ يَنجُو مِن شَرِّ ذَلِكَ الزَّمَانِ إِلَّا صَفوَتُهُ مِن خَلقِهِ».

١٧- وَكَانَ يَقُولُ: «لَيسَ هَذَا زَمَانَ الكَلَامِ، هَذَا زمَانُ السُّكُوتِ وَلُزُومِ البُيُوتِ».

١٨- وَقَالَ أَيضًا: «لِيَكُن شُغلُكَ فِي نَفسِكَ، وَلَا يَكُن شُغلُكَ فِي غَيرِكَ، فَمَن كَانَ شُغلُهُ فِي غَيرِهِ فَقَد مُكِرَ بِهِ».

الشرح

أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الأثر عن الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١)، وهو من أجلة علماء التابعين، ومن فقهاء المسلمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقول: «**في آخر الزمان عليكم بالصوامع، قلنا: وما الصوامع؟ قال: البيوت، فإنه ليس ينجو من شر ذلك الزمان إلا صفوته من خلقه**».

تقدم معنا في حديث أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن عقبة بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما

(١) الإمامُ القدوة الثبت، شيخ الإسلام، عابد الحرمين، أبو علي **الفضيل بن عياض** رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولد بسمرقند، ونشأ بأبيورد، وارتحل في طلب العلم، كان من الخوف نحيفًا، وللطواف أليفًا، توفي في ١٨٦هـ وله نيف وثمانون سنة. «حلية الأولياء» (٨/ ٨٤)، «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٢١).

النجاة؟ قال: «**املك عليك لسانك، وليسعك بيتك**»، ومعنىٰ ذلك: أن لزوم البيوت فيه نجاة، بمعنىٰ: أنه يلزم البيت ولا يخرج إلا لمصلحة متحققة دينية أو دنيوية، أما إذا كان يعلم من نفسه أن خروجه لإثم أو خطيئة أو لحرام أو لما يسخط الله ﷻ فليسعه بيته، ولا يكن خروجه منه إلا لما فيه منفعة له، وهذا هو المراد من لزوم البيوت.

قال: «**فإنه ليس ينجو من شر ذلك الزمان إلا صفوته من خلقه**».

وكان يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ليس هذا زمان الكلام، هذا زمان السكوت ولزوم البيوت**».

ولعل المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِن هذا الأثر أخذ عنوان الرسالة وعنوان الباب الثاني منها.

والسكوت المراد به: عن الشر والحرام، والأمر المشتبه علىٰ الإنسان.

«**لزوم البيوت**»: عدم الخروج منها إلَّا لما فيه خير، والخروج من البيوت تارة يكون واجبًا، وتارة مستحبًّا، وتارة يكون مباحًا، وقد يكون حرامًا، وقد يكون مكروهًا، بحسب الأمر الذي قصد الإنسان الخروج من بيته لأجله.

قال: «**وقال أيضًا: ليكن شغلك في نفسك، ولا يكن شغلك في غيرك، فمن كان شغله في غيره فقد مكر به**».

أي: اشتغِل بعيوب نفسك، وتفقَّد أخطاءك، وتأمَّل في معاصيك وتفريطك في جنب الله، ولا يكن شغلك الآخرين.

وكم من إنسان شغل نفسه بآخرين وربما كانوا عند الله ﷻ خيرًا منه، فالذي ينبغي للإنسان: أن يُشغل نفسه بعيوبه عن عيوب الآخرين[1]، حتىٰ إن بعض الناس قد تجده ينال من الآخرين طعنًا وهمزًا ولمزًا وهو مفرط في واجباته وفرائضه، ولهذا ينقل عن أحد السلف أنه قيل له: «مَا نَرَاكَ تَعِيبُ أَحَدًا وَلَا تَذُمُّهُ؟ فَقَالَ: مَا أَنَا عَن نَفسِي بِرَاضٍ»[2]؛ أي: شغله أمر نفسه وتفقُّد حاله عن غيره، فمن كان شغله في غيره فقد مُكر به، وإنما النهي عن الكلام فيما فيه إثم من غيبة أو نميمة أو سخرية أو استهزاء أو نحو ذلك، ولا يدخل في ذلك ما كان من الكلام نصحًا لدين الله -تبارك وتعالىٰ- ممن هو أهل للنصيحة، أمرٌ بالمعروف، أو نهيٌ عن منكر، أو تحذيرٌ من باطل، أو نحو ذلك.

وهذا الاحتراز الذي ينبه عليه والصيانة للسان قلَّ من يسلم منه، إلَّا من وفقه الله ﷻ.

وللإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامٌ قريب من كلامه الذي سبق يقول فيه: «ومِن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه؛ حتىٰ ترىٰ الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة وهو يتكلم

---

(١) قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من عرف نفسه اشتغل بإصلاحها عن عيوب الناس، من عرف ربه اشتغل به عن هوىٰ نفسه... أخسر الناس صفقة من اشتغل عن الله بنفسه، بل أخسر منه من اشتغل عن نفسه بالناس». «الفوائد» (ص٥٧).

(٢) «حلية الأولياء» (٢/ ١١٠).

بالكلمات مِن سخط الله لا يلقي لها بالًا ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد ما بين المشرق والمغرب.

وكم ترىٰ من رجل أبعد عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات ولا يبالي ما يقول، وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر إلىٰ ما رواه مسلم في «صحيحه» من حديث جندب بن عبد الله ﵁ قال: قال ﷺ: «**قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان**» -هذا كلام كثير؟ أو كلمة واحدة؟ كلمة واحدة ليس كلامًا كثيرًا ولا أيامًا ولا شهورًا وهو يتكلم، وإنما هي كلمة واحدة- فقال الله: «**من ذا الذي يتألّىٰ عليَّ ألَّا أغفر لفلان، قد غفرت له وأحبطت عملك**».

فهذا العابد الذي عبد الله ما شاء أن يعبده أحبطت هذه الكلمة الواحدة عمله كله، وفي حديث أبي هريرة نحو ذلك، ثم قال أبو هريرة ﵁: «تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»[1].

❊ ❊ ❊

(١) «الجواب الكافي» (ص١١١).

١٩ - أَخبَرَنَا عَلِيُّ بنُ مُحَمَّدٍ المُعَدَّلُ، أَخبَرَنَا أَبُو الحُسَينِ إِسحَاقُ بنُ أَحمَدَ الكَاذِيُّ، حَدَّثَنَا عَبدُ اللهِ بنُ أَحمَدَ بنِ حَنبَلٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا عَبدُ الرَّحمَنِ بنُ مَهدِيٍّ حَدَّثَنَا سُفيَانُ الثَّورِيُّ، عَن أَبِي عَبدِ اللهِ الأَغَرِّ، عَن وَهبِ بنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: فِي حِكمَةِ آلِ دَاوُدَ:

«حَقٌّ عَلَىٰ العَاقِلِ أَن تَكُونَ لَهُ أَربَعُ سَاعَاتٍ: سَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفسَهُ، وَسَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يَخلُو فِيهَا إِلَىٰ إِخوَانِهِ الَّذِينَ يُخبِرُونَهُ بِعيوبِ نَفسِهِ، وَسَاعَةٌ يُخلِي بَينَ نَفسِهِ وَبَينَ شَهوَاتِهَا الَّتِي لَا قِوَامَ لَهُ إِلَّا بِهَا مِمَّا يَحِلُّ وَيَحسُنُ، فَإِنَّ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ عَونًا لَهُ عَلَىٰ السَّاعَاتِ الأُخَرِ.

وَحَقٌّ عَلَىٰ العَاقِلِ: أَن يَكُونَ عَارِفًا بِزَمَانِهِ، حَافِظًا لِلِسَانِهِ، مُقبِلًا عَلَىٰ شَانِهِ.

وَحَقٌّ عَلَىٰ العَاقِلِ: أَلَّا يُرَىٰ ظَاعِنًا إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: زَادٍ لِمَعَادٍ، أَو مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ، أَو لَذَّةٍ فِي غَيرِ مُحَرَّمٍ».

الشرح

أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الأثر عن وهب بن منبه، قال: «**في حكمة آل داود**»، ومثل هذا يروىٰ عند أهل العلم، وما ينقل من نحو ذلك من كلمات ومواعظ ومعانٍ صائبة فإنها تُذكر للاعتضاد لا للاعتماد.

قال: «**حق علىٰ العاقل أن تكون له أربع ساعات: ساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يناجي فيها ربه، وساعة يخلو فيها إلىٰ إخوانه الذين يخبرونه بعيوب نفسه، وساعة يخلي بين نفسه وبين شهواتها التي لا قوام له إلا بها مما يحل**

ويحسن، فإن في هذه الساعة عونًا له علىٰ الساعات الأخر».

والمراد بالساعة: ليس الساعة تحديدًا، وإنما المراد الأوقات؛ يعني: يقسم أوقاتًا بأن يكون هناك أوقات للمحاسبة، وأوقات للذكر والعبادة، وأوقات يجلس مع إخوانه ورفقائه ومن يحب، وأوقات في الشهوات المباحة التي أحلها الله ولا يكون فيها ما يسخطه سبحانه؛ فإن هذا الإجمام للنفس في الشهوة المباحة عونٌ له علىٰ الساعات الأخر.

«**وحق علىٰ العاقل أن يكون عارفًا بزمانه، حافظًا للسانه، مقبلًا علىٰ شأنه**».

العاقل يكون علىٰ دراية بمعرفة زمانه وما يكون فيه من فتن وأخطار، إلىٰ غير ذلك، وأن يصون لسانه عما يسخط الله ﷻ، ويكون مقبلًا علىٰ شأنه الذي ينفعه في دينه ودنياه.

«**وحق علىٰ العاقل ألَّا يُرىٰ ظاعنًا**»؛ أي: مرتحلًا.

«**إلا في ثلاث: زاد لمعاد**»؛ أي: يرتحل ليتزود بما ينفعه يوم لقاء الله، قال تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

«**أو مرمة لمعاش**»؛ أي: طلب للعيش أو الرزق.

«**أو لذة في غير محرم**»؛ أي: الشهوات المباحة التي أحلها الله، ولا يكون فيها ما يسخطه سبحانه، كما تقدم.

وهذه كلها معانٍ صحيحة.

❊ ❊ ❊

٢٠- أَخبَرَنَا أَبُو الفَوَارِسِ الحَسَنُ بنُ أَحمَدَ بنِ أَبِي الفَوَارِسِ قال: أَخبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ بنُ الصَّوَّافِ قال: حَدَّثَنَا عَبدُ اللهِ بنُ أَحمَدَ بنِ حَنبَلٍ قال: حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو المُغِيرَةِ الحِمصِيُّ قال: حَدَّثَنَا صَفوَانُ بنُ عَمرٍو قال: حَدَّثَنِي قَيسُ بنُ عَمرٍو السَّكُونِيُّ قال: حَدَّثَنِي عَاصِمُ بنُ حُمَيدٍ قَالَ: سَمِعتُ مُعَاذًا يَقُولُ: «إِنَّكُم لَن تَرَوا مِنَ الدُّنيَا إِلَّا بَلَاءً وَفِتنَةً، وَلَن يَزدَادَ الأَمرُ إِلَّا شِدَّةً، وَلَن تَروا مِنَ الأُمَرَاءِ إِلَّا غِلظَةً، وَلَن تَروا أَمرًا يَهُولُكُم وَيَشتَدُّ عَلَيكُم إِلَّا حَقَرَهُ بَعدُ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنهُ، قَالَ أَحمَدُ بنُ حَنبَلٍ ﵁: اللَّهُمَّ رَضِّنَا، اللَّهُمَّ رَضِّنَا».

الشرح

أورد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الأثر عن معاذ ﵁ يقول: «إِنَّكُم لَن تَرَوا مِنَ الدُّنيَا إِلَّا بَلَاءً وَفِتنَةً»، وذلك أن الدنيا دار ابتلاء ودار امتحان؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥]، فالدنيا دار ابتلاء.

ولهذا يقول ﵁: «وَلَن يَزدَادَ الأَمرُ إِلَّا شِدَّةً» وذلك أن أمور أهل الإيمان من كمال إلىٰ نقص، ولا يأتي علىٰ الناس زمان إلا والذي بعده دونه، أو أقل منه، في «صحيح البخاري» عَنِ الزُّبَيرِ بنِ عَدِيٍ قَالَ: «أَتَينَا أَنَسَ بنَ مَالِكٍ فَشَكَونَا إِلَيهِ مَا نَلقَىٰ مِنَ الحَجَّاجِ، فَقَالَ: اصبِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يَأتِي عَلَيكُم زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعدَهُ شَرٌّ مِنهُ، حَتَّىٰ تَلقَوا رَبَّكُم»(١).

قال: «وَلَن تَروا مِنَ الأُمَرَاءِ إِلَّا غلظة» كلما كان نقص الناس في ديانتهم،

(١) رواه البخاري (٧٠٦٨).

وفي عبادتهم، وفي صدقهم مع الله، يكون الحال كذلك فيمن يُوَلَّىٰ عليهم.

«**وَلَن تَرَوا أَمرًا يَهُولُكُم وَيَشتَدُّ عَلَيكُم إِلَّا حَقَرَهُ بَعدُ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنهُ**» قد يرىٰ الإنسان أمرًا مهولًا، أمرًا يراه شديدًا عظيمًا، ثم يأتي إلىٰ الزمان الذي بعده أو يمتد به العمر فيرىٰ أمورًا أشد مما كان يراه في شبابه، بمعنىٰ: أن الأمور في تغيرها بهذا الحال؛ هذا كله قاله ﷺ تنبيهًا للمؤمن إلىٰ ما ينبغي أن يكون عليه في الابتلاء من مجاهدة للنفس علىٰ الثبات علىٰ الحق، وسبق الالتجاء إلىٰ الله سبحانه، والرضا بالله، وعن الله تعالىٰ، وألَّا ينحرف في خضم الفتن التي تداهمه وتهلك من تهلك من الناس، مستعينًا بالله عَزَّ وَجَلَّ من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

ولهذا قال الإمام أحمد -رضي الله عنه ورحمه-: «**اللهم رضنا**» مرتين، **وهذا فيه أن أهم ما ينبغي أن يكون عليه المسلم في هذه الأحوال:** الرضا بالله جَلَّ جَلَالُهُ والرضا عنه تعالىٰ، وهما أمران مهمان للغاية، وفي «صحيح مسلم» عَنِ العَبَّاسِ ابنِ عَبدِ المُطَّلِبِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**ذَاقَ طَعمَ الإِيمَانِ مَن رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**»(١).

فمثل هذه الأمور ينبغي أن يروض المسلم نفسه عليها؛ كالإقبال علىٰ الله، والالتجاء إليه، وكلما اشتدت الفتن يزداد إقبالًا عليه سبحانه، فعن مَعقِلِ بنِ يَسَارٍ رَدَّهُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**العِبَادَةُ فِي الهَرجِ كَهِجرَةٍ إِلَيَّ**»(٢).

وفي الحديث الآخر -وهو في «الصحيح»- عَن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

(١) رواه مسلم (٢٦).

(٢) رواه مسلم (٢٩٤٨).

استَيقَظَ لَيلَةً فَقَالَ: سُبحَانَ اللهِ، مَاذَا أُنزِلَ اللَّيلَةَ مِنَ الفِتنَةِ؟! مَاذَا أُنزِلَ مِنَ الخَزَائِنِ؟! مَن يُوقِظُ صَوَاحِبَ الحُجُرَاتِ؟ يَا رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنيَا عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ»(١).

وهذا فيه أن المسلم ينبغي عليه في الفتن أن يقبل علىٰ العبادة، علىٰ الذكر، علىٰ الاستكانة والخضوع لله ﷻ، بينما كثير من الناس في الفتن تشغلهم عن ذكر الله ﷻ؛ بل إن كثيرًا منهم تشغلهم الفتن حتىٰ علىٰ طاعة الله.

فكم من أناس أشغلتهم الفتن عن إقامة الصلاة في أوقاتها، وكم من الناس أوقعتهم الفتن في منكرات ومحرمات وأمور تسخط الله تعالىٰ.

فالفتن جارفة ومهلكة ولا يسلم منها إلا من سلمه الله ﷻ ووقاه(٢).

وقول معاذ رضي الله عنه في الأثر: «إنكم لن تروا من الدنيا إلَّا بلاء وفتنة».

جاء كذلك عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: «لا يأتي عليكم عام إلا والذي بعده شر منه، إنه يأتي علينا العام نَخْصَبُ -أي يكون خصبًا- والعام لا نخصب فيه -يعني مرة ومرة- إني والله لا أعني خصبكم ولا جدبكم، ولكن ذهاب العلم أو العلماء، قد كان قبلكم عمر فأروني العام مثله»(٣).

يمكن أن يقال في زماننا هذا: قد كان الإمام ابن باز رحمه الله فأرونا مثله، لكن

---

(١) رواه البخاري (١١٢٦).

(٢) انظر كتاب شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر -حفظه الله- «آثار الفتن» (ص١٥)؛ فإنه بالغ الأهمية.

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٥٨٦).

مع ذلك الخيرُ باقٍ، يعني: مع ذكرنا لهذا أيضًا نذكر النصوص التي تبعث في العبد الإقبال والطمأنينة وأن الخير له أهله، وهو باقٍ.

عَن ثَوبَانَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الحَقِّ، لَا يَضُرُّهُم مَن خَذَلَهُم حَتَّىٰ يَأتِيَ أَمرُ اللهِ وَهُم كَذَلِكَ**»(١).

وفي الحديث الآخر: «**لَا يَزَالُ اللهُ يَغرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرسًا يَستَعمِلُهُم فِي طَاعَتِهِ**»(٢)، الشاهد أن الخير باقٍ.

وقراءة مثل هذه النصوص ليست لتيئيس الإنسان وتقنيطه، بل ليُقبل علىٰ الله سبحانه، ليكون من أهل الخير -وإن كانوا قلة- فيكون من هؤلاء.

❊ ❊ ❊

(١) رواه مسلم (١٩٢٠).

(٢) رواه ابن ماجه (٨)، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٨).

٢١- وَأَنشَدَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ فِي مَعنَىٰ هَذَا الحَدِيثِ:

عَجَبًا لِلزَّمَانِ فِي حَالَتَيهِ ... وَلِأَمرٍ دُفِعتُ مِنهُ إِلَيهِ
رُبَّ يَومٍ بَكَيتُ مِنهُ فَلَمَّا ... صِرتُ فِي غَيرِهِ بَكَيتُ عَلَيهِ

الشرح

وأورد هذين البيتين، قال: وهما عن علي ﷺ، وهما في معنىٰ هذا الحديث.

قال: «**عَجَبًا لِلزَّمَانِ فِي حَالَتَيهِ**»: المراد بحالتيه: الحالة الأولىٰ والحالة الثانية، الأولىٰ التي هي حال جيدة، والثانية هي التي دون ذلك: «**اصبِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يَأتِي عَلَيكُم زَمَانٌ إِلاَّ الَّذِي بَعدَهُ شَرٌّ مِنهُ، حَتَّىٰ تَلقوا رَبَّكُم**»[(١)].

فحالة جيدة، وحال دون ذلك، هذا هو حال الزمان.

«**وَلِأَمرٍ دُفِعتُ مِنهُ إِلَيهِ**» من حال إلىٰ حال.

«**رُبَّ يَومٍ بَكَيتُ مِنهُ**»؛ يعني: أكون من أهل تلك الحال الجيدة، ويبكي منه لما رأىٰ فيه من أشياء مؤلمة، فقال: «**فَلَمَّا صِرتُ فِي غَيرِهِ بَكَيتُ عَلَيهِ**»؛ لأنه لا يأتي علىٰ الناس زمان إلا والذي بعده شر منه.

كان كبار السن قديمًا يبكون من أشياء تؤلمهم -أعني: الصالحين منهم- وفي زماننا هذا قد يبكون علىٰ ذلك الزمان؛ لما رأوا من أبواب الشر التي انفتحت علىٰ أبنائنا وما كانوا يعرفونها؛ كهذه الأجهزة، والوسائل الحديثة، والأمور التي

(١) رواه البخاري (٧٠٦٨).

تُلَوِّث الأفكار وَتُغَيِّرها، والله المستعان.

فهذه التقلبات والأحوال أمور قدرها الله عَزَّوَجَلَّ كونًا وقدرًا، ولكن المؤمن يدافع قدر الله بقدر الله؛ بأن يلجأ إلىٰ الله، ويصدق مع الله عَزَّوَجَلَّ، ويستعين بالله، والمؤمن الصادق ينجيه الله مهما كانت الفتن، إذا صدق مع الله عَزَّوَجَلَّ وحرص علىٰ ركوب سفينة النجاة؛ وهي الهدي المبارك؛ **كما قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:** «السنة سفينة النجاة، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق»[١].

❊ ❊ ❊

---

(١) «ذم الكلام وأهله» (٨٧٢).

٢٢- وَأَنشَدَ أَيضًا بعضُ أهلِ العِلمِ في مَعناهُ:

إِذَا مَا الدَّهرُ أَورَثَنِي انتِقَاصًا ... حَنَوتُ لَهُ غِمَاصًا لَا انتِكَاصَا

وَقُلتُ لَهُ نَعِمنَا فِيكَ حِينًا ... وَهَذَا الفِعلُ مِنكَ لَنَا قِصَاصَا

فَطَورًا شَاكِرًا مَا كَانَ مِنهُ ... وَطَورًا صَابِرًا أَرجُو الخَلَاصَا

الشرح

هذه الأبيات فيها أيضًا تقلبات الزمان، والمعنىٰ الذي يشار إليه في هذه الأبيات ظاهر والله أعلم، فهو يتعلق بحال الإنسان من حيث الشدة والرخاء؛ علىٰ خلاف المعنىٰ الذي تقدم فيما قبله، **فمن حيث الشدة والرخاء:** قد يكون الإنسان في حال من الأحوال في زمانه، ثم يتحول ذلك إلىٰ انتقاص، قد يكون مثلًا في قوة في بدنه وصحة، ثم يتحول إلىٰ انتقاص وضعف، فيقول:

إِذَا مَا الدَّهرُ أَورَثَنِي انتِقَاصًا ... حَنَوتُ لَهُ غِمَاصًا لَا انتِكَاصَا

أي: إنه يلقىٰ هذه الشدائد بحيث إنها تمر وتعبر، ولكنها لا تثنيه، ولا تسبب له انتكاصًا.

عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﵁: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَثَلُ المُؤمِنِ كَمَثَلِ خَامَةِ الزَّرعِ**»(١)، وخامة الزرع -كما هو معلوم- إذا هبت الرياح تميل، وإذا توقفت رجعت إلىٰ أصلها، لكن الرياح لا تكسرها، فمع الرياح الشديدة تميل خامة الزرع، فهذا مثل ضربه النبي ﷺ للمؤمن في حاله مع الشدة والرخاء وتقلب الأحوال.

(١) رواه البخاري (٧٤٦٦) واللفظ له، ورواه مسلم (٢٨٠٩).

وَقُلْتُ لَهُ نَعِمْنَا فِيكَ حِينًا ... وَهَذَا الفِعْلُ مِنكَ لَنَا قِصَاصًا

«**نعمنا فيك حينا**»؛ أي: تمتعنا بنعم متعددة، وهذا منكَ -أي: الزمان- قصاص لما كان منا من نعيم كان قبل ذلك.

فَطَوْرًا شَاكِرًا مَا كَانَ مِنْهُ ... وَطَوْرًا صَابِرًا أَرْجُو الخَلَاصَا

وفيما يظهر لي -والله أعلم- في ثنايا البيت بعض المعاني غير المناسبة من حيث مخاطبة الدهر بهذه الأمور، وذكر الشكر والصبر، وكمثل مخاطبة الدهر بما لا يملك، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ ﷻ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهرَ، وَأَنَا الدَّهرُ، بِيَدِي الأَمرُ، أُقَلِّبُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ**»[(١)].

فهو من جهة لا علاقة له بالمعنىٰ الذي قبله، ومن جهة أخرىٰ لا يسلم من بعض المعاني غير المناسبة.

❁ ❁ ❁

(١) رواه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

فائدة:

قال الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد البدر -حفظه الله-: «وليس في أسماء الله اسمٌ جامد، وما ذكره بعضُ أهل العلم من أنَّ من أسماء الله (الدَّهر) فغيرُ صحيح؛ فإنَّ الحديث القدسي: «**يُؤذينِي ابنُ آدم يَسبُّ الدَّهر، وأنا الدَّهر، بيدي الأمر، أُقلِّب اللَّيلَ والنَّهار**» رواه البخاري (٤٨٢٦) ومسلم (٢٢٤٦)، لا يدلُّ علىٰ أنَّ من أسماء الله الدَّهر؛ لأنَّ الدَّهرَ هو الزمان، والله تعالىٰ هو الذي يُقلِّبُ اللَّيل والنهار، فمَن سبَّ المقلَّب (بفتح اللاَّم وتشديدها) وهو الدَّهر، رجعت مسبَّتُه إلىٰ المقلِّب (بكسر اللاَّم وتشديدها) وهو الله، وقد بيَّن الله ذلك بقوله: «**بيدي الأمر، أقلِّب الليل والنهار**». «قطف الجنىٰ الداني» (ص٧٦).

٢٣- وَاجتَمَعَ أَربعَةٌ مِنَ العُبَّادِ فَقَالَ بَعضُهُم لِبَعضٍ: لِيَقُل كُلُّ وَاحِدٍ مِنكُم فِي زَمَنِهِ شَيئًا؛ فَأَنشَأَ الأول يَقُولُ:

إِن دَامَ ذَا الدَّهرُ لَم يُحزَن عَلَىٰ أَحَدٍ ... مِمَّن يَمُوتُ وَلَم يُفرَح بِمَولُودِ

وَأَنشَأَ الثَّانِي يَقُولُ:

هَذَا الزَّمَانُ الَّذِي كُنَّا نُحَذَّرُهُ ... فِي قَولِ كَعبٍ وَفِي قَولِ ابنِ مَسعُودِ

وَأَنشَأَ الثَّالِثُ يَقُولُ:

أَعمَىٰ أَصَمُّ مِنَ الأَزمَانِ مُلتَبِسٌ ... وَفِيهِ لِلنَّفسِ تَصوِيبٌ بِتَصعِيدِ

وَأَنشَأَ الرَّابِعُ يَقُولُ:

فَاطلُب لِنَفسِكَ مَنجَاةً وَمُدَّخَلًا ... لَابُدَّ مِنهُ وَلَو فِي قَعرِ مَلحُودِ

الشرح

أورد هنا هذا الخبر عن اجتماع أربعة من العباد فقال بعضهم لبعض: «**ليقل كل واحد منكم في زمنه شيئًا**»، والمراد بقولهم هذا؛ أي: وصف زمنه من حيث الحال التي يراها ويشاهدها، ولاسيما مقارنة بالذي قبله.

فقال أحدهم: «**إِن دَامَ ذَا الدَّهرُ لَم يُحزَن عَلَىٰ أَحَدٍ**»؛ يعني: إن بقيت الأمور علىٰ ما هي عليه من اشتدادها، لم يُحزن علىٰ أحد ممن يموت، لأن موته خلاص من هذه الشدائد، وسلامة ونجاة من هذه الفتن.

لم يُحزن علىٰ أحد، «**وَلَم يُفرَح بِمَولُودِ**»: لأن المولود ولد وهو يستقبل مثل هذه الأمور، وهذه الشدائد، وهذه الفتن؛ ولكن هذا كلام عُبَّاد، وليس كلام

علماء؛ لأن المسلم يفرح بالمولود ويتقي الله تعالىٰ في كل أحواله، ويجاهد النفس علىٰ تربيته؛ لأنه من النعم والهبات العظيمة، كما قال الله ﷻ في أواخر سورة الشورىٰ: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾ [الشورىٰ:٤٩-٥٠].

وهذه أحوال الناس من حيث الأولاد وعدمهم أنهم علىٰ أربعة أقسام:

١- قسم يَمُنُّ الله عليه بالبنات دون البنين.

٢- وقسم يَمُنُّ الله عليه بالبنين دون البنات.

٣- وقسم يمن عليه بالبنين والبنات ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾؛ أي: يعطيه البنين والبنات.

٤- ومنهم من يكون عقيمًا لا ينجب.

وهذه القسمة أيضًا وجدت حتىٰ في الأنبياء، منهم من أعطاه الله تعالىٰ البنين دون البنات مثل: إبراهيم عليه السلام، ومنهم من أعطاه البنات دون البنين مثل: لوط عليه السلام، ومنهم من جمع الله له بين البنين والبنات مثل: نبينا محمد ﷺ، ومنهم من لم يولد له مثل: عيسىٰ عليه السلام.

فالمولود هبة ولا ينبغي أن يقابل المسلم المولود -ذكرًا كان أو أنثىٰ- بعدم الفرح أو بالحزن؛ لأن الذي أوجده تكفل برزقه، وإذا التجأ المسلم لربه، واتقىٰ الله في هذا المولود -سلَّمه الله وحفظه-، فقوله: «وَلَم يُفرَح بِمَولُودِ» هذا غير

صحيح، فإذا كان المقصود بالشدة هنا الشدة من حيث قلة ذات اليد والفقر الله يقول: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء:٣١]، فالله تكفل برزقهم ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود:٦]، وعلىٰ كلٍّ هذا كلام عبَّاد وليس كلام علماء كما تقدم.

قال: وَأَنشَأَ الثَّانِي يَقُولُ:

هَـذَا الـزَّمَانُ الَّـذِي كُـنَّا نُحَـذَّرُهُ ... فِي قَولِ كَعبٍ وَفِي قَولِ ابنِ مَسعُودِ

جاء عن كعب وعن ابن مسعود وعن معاذ وأبي مسعود البدري وغيرهم رضي الله عنهم، بيان لأحوال الزمان والتغير الذي يحصل للناس، ومثل هذه الأمور وإن كانت وجاء الخبر بها واقعة قدرًا قدَّرها الله عز وجل، إلا أن المؤمن مطالب باتقاء الله في الفتن، والاستعاذة به -جل وعلا-، وصدق اللجوء إليه، ولزوم عبادته، وتحقيق تقواه -جل وعلا-؛ لأن هذه الدار دار ابتلاء وامتحان، وتقدم معنا في أثر أبي مسعود البدري رضي الله عنه تقرير مثل هذا المعنىٰ.

قال: وأنشأ الثالث يقول:

أَعمَىٰ أَصَـمُّ مِـنَ الأَزمَـانِ مُلتَـبِسٌ ... وَفِـيهِ لِلـنَّفسِ تَـصوِيبٌ بِتَـصعِيدِ

وهذا أيضًا وصف للزمان واشتداد الأمور فيه، ولعله يصف اشتداد الفتن، والفتن إذا اشتدت هذا وصفها؛ يقال عن الفتنة إنها عمياء، صماء، بكماء، ولهذا يقع فيها ويهلك أكثر الناس؛ لأن هذا وصفها: عمياء، بكماء، صماء.

وأيضًا لما قال: «**لِلنَّفسِ تَصوِيبٌ بِتَصعِيدِ**»؛ أي: أن النفس في الفتن تضطرب وتتقلب، ولا ينضبط لها حال، ولا ينجو منها إلا مَن نَجَّاه الله عز وجل، ووفقه في

صدق التجائه إلىٰ الله ﷻ .

وأنشأ الرابع يقول:

فَاطلُب لِنَفسِكَ مَنجَاةً وَمُدَّخَلًا لَابُدَّ مِنهُ وَلَو فِي قَعرِ مَلحُودِ

وهذا أيضًا يصف شدة الأحوال في زمانه، وأن الإنسان يبحث لنفسه النجاة ويطلبها ولو كان في مكان ضيق يلزمه، ويكون فيه بعيدًا عن الفتن والخوض فيها، ولعل هذا هو المعنىٰ المراد والله أعلم.

❊ ❊ ❊

٢٤- وَقَالَ بَعضُ الحُكَمَاءِ: الزَّمَانُ لَا عَيبَ لَهُ وَلَا ذَمَّ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَىٰ يُصَرِّفُ أَقدَارَهُ فِيهِ.

الشرح

إيراد هذا الخبر عن بعض الحكماء هو من جميل صنع المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأن فيما قبله ما هو منتقد؛ كما سبق بيانه في عيب الزمان؛ فأورد هذا الأثر مُنَبِّهًا علىٰ ذلك.

قال بعض الحكماء: «**الزَّمَانُ لَا عَيبَ لَهُ وَلَا ذَمَّ**»: فلا يتجه إليه بالعيب ولا بالذم، «**لِأَنَّ الله تَعَالَىٰ يُصَرِّفُ أَقدَارَهُ فِيهِ**»؛ بمعنىٰ: أن الزمان لا يملك شيئًا، فلا يُعاب ولا يُمدح ولا يُذم؛ لأنه مُقَلَّب ولا يملك من أمر التقلب شيئًا، وإنما الأمر بيد الله عَزَّوَجَلَّ، الذي يقلب الدهر كيف يشاء، ولهذا لا يتجه للدهر بالحمد كما أنه أيضًا لا يتجه إليه بالذنب، ومر معنا في الأبيات التي ذكر قول الناظم:

فَطَورًا شَاكِرًا مَا كَانَ مِنهُ ... وَطَورًا صَابِرًا أَرجُو الخَلَاصَا

يعني: هذا كله فيما يتعلق بمخاطبة الدهر، فهو لا يملك من الأمر شيئًا؛ فلا يُمدح علىٰ ما جعل الله فيه من خير، ولا يُذَم علىٰ ما جعل الله عَزَّوَجَلَّ فيه من بلاء وفتنة، قال: «**لِأَنَّ الله تَعَالَىٰ يُصَرِّفُ أَقدَارَهُ فِيهِ**»، وفي الحديث: «**قَالَ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ: **يُؤذِينِي ابنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهرَ، وَأَنَا الدَّهرُ، بِيَدِي الأَمرُ، أُقَلِّبُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ**»[١]، فهذه التقلبات في الليل والنهار، والتقلبات في الأحوال، هذه كلها أمور بقدر الله وقضائه عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) رواه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

٢٥- وَأَنشَدَ:

نَعِيبُ زَمَانَنَا وَالعَيبُ فِينَا ... وَمَا لِزَمَانِنَا عَيبٌ سِوَانَا
وَقَد نَهجُو الزَّمَانَ بِغَيرِ جُرمٍ ... وَلَو نَطَقَ الزَّمَانُ بِهِ هَجَانَا
دِيَانَتُنَا التَّخَادُعُ وَالتَّرَائِي ... فَنحنُ لَهُ نُخَادِعُ مَن يَرَانَا

الشرح

وفي المعنىٰ نفسه أورد هذه الأبيات: «**نَعِيبُ زَمَانَنَا وَالعَيبُ فِينَا**»؛ يعني: كأن الإنسان عندما يعيب الزمان يريد بذلك كأنه يخلي مسئوليته، والزمان لا يملك شيئًا، لكن أنت عبد مسئول أمام الله ﷻ، ومطلوب منك العبودية لله ﷻ، كيفما كانت الحال، إن كانت شدة لها عبودية، وإن كانت رخاء لها عبودية، وإن كانت فتنة لها عبودية، وأنت في دار امتحان بأنواع من الامتحانات.

كيف تعبد الله ﷻ في كل حال؟ كيف تلجأ إلىٰ الله ﷻ؟ فكثير من الناس ينشغل بعيب الزمان عن عيب نفسه، والعيب فيه هو، والملامة والمحاسبة عليه، فينبغي أن يعمل علىٰ صلاح نفسه كيفما كان الزمان، وينظر عبوديته المطلوبة منه في الحال التي هو عليها، فيحقق تلك العبودية صابرًا محتسبًا.

قال: «**وَمَا لِزَمَانِنَا عَيبٌ سِوَانَا**»؛ أي: أن العيب فينا نحن أهل الزمان لا الزمان نفسه.

«**وَقَد نَهجُو الزَّمَانَ بِغَيرِ جُرمٍ**»: و«**قَد**» تستعمل تارة للتكثير، وتارة للتقليل، وتارة للتحقيق، وهنا استعمالها للنوع الثالث: للتحقيق؛ لأن من يهجو الزمان

هو في الحقيقة هجاه من غير جرم، ما يملك شيئًا حتىٰ يُذم أو يُهجىٰ.

وَقَـدْ نَهجُـو الـزَّمَانَ بِغَيـرِ جُـرمٍ وَلَـو نَطَـقَ الـزَّمَانُ بِـهِ هَجَانَـا

وهذا في معنىٰ الذي قبله «**وَمَا لِزَمَانِنَا عَيبٌ سِوَانَا**»: العيب الذي تذمونني فيه هو عيبكم أنتم.

ثم يبين حال بعض من الناس:

«**دِيَانَتُنَا التَّخَادُعُ وَالتَّرَائِي**»: التخادع؛ أي: يخدع بعضنا بعضًا، والترائي؛ أي: كلٌّ يُري من نفسه للآخر صلاحًا، الترائي بالأعمال وبالديانة، ولكن فيه ما فيه من الانحلال والفساد، ولكنه إذا لقي الناس أخذ يريهم من نفسه صلاحًا وأدبًا.

«**فَنحَنُ لَهُ نُخَادِعُ مَن يَرَانَا**»؛ أي: للزمان الذي نعيشه ونحياه فنخادع من يرانا.

❊ ❊ ❊

٢٦- وَأَنشَدَ أَيضًا:

أَرَىٰ حُلَلًا تُصَانُ عَلَىٰ رِجَالٍ ... وَأَعرَاضًا تُذَلُّ فَلَا تُصَانُ
يقُولُونَ الزَّمَانُ بِهِ فَسَادٌ ... وَهُم فَسَدُوا وَمَا فَسَدَ الزَّمَانُ

الشرح

هذان البيتان مهمان جدًّا وفي معانيهما قوة، ولاسيما الأول، يقول فيه الناظم: «أَرَىٰ حُلَلًا تُصَانُ عَلَىٰ رِجَالٍ» والمراد بالحلل: الثياب، فيعتني الرجال بها، نظافة، وحبكًا، وترتيبًا، وصيانة من أن يصل إليها شيء من القذر، أو الأذىٰ؛ محافظة علىٰ نقائها.

«وَأَعرَاضًا تُذَلُّ فَلَا تُصَانُ»؛ أي: يكون هذا الذي يعتني بثيابه ولا يبالي بأعراض المسلمين وقيعة وهتكًا، وهذه مصيبة أن تبلغ الحال أن يكون ثوبه الذي عن قريب يبلىٰ ويلقيه ويستبدله بآخر أهم عنده وأولىٰ من عرض أخيه المسلم!

قد بلغ الأمر هذا المبلغ أن كان ثوبه الذي هو قطعة من قماش أهم عنده من عرض أخيه، فيعتني بثوبه عناية دقيقة ولا يبالي بأن يدنس عرض أخيه، أَبَلَغَ الأمرُ به أنَّ هذا الثوب أولىٰ عنده من عرض أخيه؟!

يقُولُونَ الزَّمَانُ بِهِ فَسَاد ... وَهُم فَسَدُوا وَمَا فَسَدَ الزَّمَانُ

يعني: كثيرًا من الناس عندما يُلامُ علىٰ أخطائه وعلىٰ سوء تصرفاته يجعل اللوم علىٰ الزمن، يقول: هذا هو الزمن، وهذا الوقت، نحن هكذا وجدنا فيه، وهذا خطأ كما سبق.

بَابُ مَا يَجِبُ عِندَ ظُهُورِ الفِتَنِ مِن طَلَبِ السَّلَامَةِ وَلُزُومِ الوَطَنِ

٢٧- أَخبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ الحَسَنُ بنُ مُحَمَّدٍ الخَلَّالُ الحَافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَخبَرَنَا عُمَرُ بنُ أَحمَدَ بنِ شَاهِينَ قال: حَدَّثَنَا عَبدُ اللهِ بنُ مُحَمَّدٍ البَغَوِيُّ قال: حَدَّثنا مُحَمَّدُ ابن عَبدِ المَلِكِ بنِ أَبِي الشَّوَارِبِ قال: حَدَّثَنَا عَبدُ الوَاحِدِ بن زِيَادٍ قال: حَدَّثَنَا عَاصِمٌ، عَن أَبِي كَبشَةَ قَالَ: سَمِعتُ أَبَا مُوسَىٰ الأَشعَرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ يَقُولُ عَلَىٰ المِنبَرِ:

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ بَينَ أَيدِيكُم فِتنًا كَقِطَعِ اللَّيلِ المُظلِمِ يُصبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤمِنًا، وَيُمسِي كَافِرًا، وَيُمسِي مُؤمِنًا، وَيُصبِحُ كَافِرًا، القَاعِدُ فِيهَا خَيرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ فِيهَا خَيرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيرٌ مِنَ السَّاعِي، قَالُوا: فَمَا تَأمُرُنَا؟ قَالَ: كُونُوا أَحلَاسَ بُيُوتِكُم».

الشرح

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَابُ مَا يَجِبُ عِندَ ظُهُورِ الفِتَنِ مِن طَلَبِ السَّلَامَةِ وَلُزُومِ الوَطَنِ»: هذا الباب عقده رَحِمَهُ اللَّهُ لبيان ما يجب علىٰ المسلم عندما تظهر الفتن وتشرئب، وأن الواجب عليه ألَّا يستشرف لها؛ لأن من استشرف للفتن أهلكته، ولم يحمد العاقبة ويندم في دنياه وأخراه، فالسلامة فيها تركها وتجنبها والاستعاذة

بالله ﷻ منها.

ولهذا عند ظهور الفتن يحرص المسلم علىٰ طلب السلامة؛ أي: إذا هاجت الفتنة يحرص علىٰ ألَّا يكون له يد فيها لا بانتهاك عرض، ولا بوقوع في دم حرام، أو قتل مسلم، أو اعتداء علىٰ مال، كما في الحديث: «**فَإِنَّ دِمَاءَكُم وَأَموَالَكُم وَأَعرَاضَكُم عَلَيكُم حَرَامٌ**»(١)، وفي الفتن ترخص الدماء والأعراض والأموال، ويكثر الاعتداء في هذه الأمور.

«**قال الليث بن سعد وغيره**: كتب رجل إلىٰ ابن عمر: أن اكتب إلي بالعلم كله.

فكتب إليه: إن العلم كثير، ولكن إن استطعت أن تلقىٰ الله خفيف الظهر من دماء الناس، خميص البطن من أموالهم، كاف اللسان عن أعراضهم، لازمًا لأمر جماعتهم، فافعل»(٢).

ذكر ﵁ هذه الأمور الثلاثة، وأنها جمعت للمسلم جماع الخير، وهي التي ذكرها النبيﷺ في قوله: «**فَإِنَّ دِمَاءَكُم وَأَموَالَكُم وَأَعرَاضَكُم عَلَيكُم حَرَامٌ**».

فإذا اشتدت الفتن فإن الدماء ترخص وتُراق، وقد يريق المسلم دم المسلم، وأيضًا الأعراض ترخص، وقد يعتدي المسلم علىٰ عرض أخيه المسلم: غيبة ونميمة، وسخرية، واستهزاءً، وتطاولًا، وتعديًا، وكذلك الأموال ترخص، ويرىٰ في الفتنة كثير من الناس أن له حقًّا في تلك الأموال، ويأخذها ولا يُبالي.

---

(١) رواه البخاري (١٧٣٩)، ومسلم (١٦٧٩).

(٢) «تاريخ دمشق» (٣١/ ١٧٠)، «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٢٢).

فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**بَابُ مَا يَجِبُ عِندَ ظُهُورِ الفِتَنِ مِن طَلَبِ السَّلَامَةِ**»؛ أي: أن يخرج من الفتنة سليمًا لم يعتدِ علىٰ دم، ولم ينتهك عرضًا، ولم ينهب مالًا، وهي أمور ثلاثة جاء التأكيد عليها مرات كثيرة في الأحاديث عن رسول الله ﷺ: الدماء، والأعراض، والأموال.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وَلُزُومِ الوَطَنِ**»؛ أي: لزوم الإنسان مسكنه ومكانه، فلا يشرئب للفتن، ولا يبحث عنها، وفي الحديث عن نبينا ﷺ: «**إن السعيد لمن جُنِّب الفتن**»(١).

أورد -رحمه الله تعالىٰ- حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه: يَقُولُ عَلَىٰ المِنبَرِ، انتبه لكلمة: «**يَقُولُ عَلَىٰ المِنبَرِ**»، أي: إن هذا المعنىٰ الذي ذكر هنا مما يحتاج إليه في الخطابة العامة، والبيان والنصيحة للناس، وإذا كان هذا الكلام قاله علىٰ المنبر رضي الله عنه في زمانه، فما أحوج الناس في مثل هذا الزمان أن يخطب علىٰ المنبر بمثل هذه المعاني، والبيان، والنقل لهذه الأحاديث العظيمة عن رسول الله ﷺ؛ لأن بعض الناس قد يصاب بشيء من الهوىٰ في الفتن، فإذا سمع بعض الأحاديث علىٰ المنابر انزعج، وتضجر، وتضايق، وتمنىٰ أن الخطيب لا يقول هذه الأحاديث، وما ذاك إلا أن قلبه أصيب بشيء من الهوىٰ، ولهذا تجد فيه هذا البغض لأحاديث الرسول ﷺ، وقد تجد بعضهم إذا سمع أحاديث لا توافق هواه اعترض وقال: ليس بوقتها، وإذا كانت توافق هواه قَبِلَها، وهذه المصيبة من المصائب التي يبتلىٰ بها بعض الناس ممن يُقبل علىٰ الفتن فيصاب بشيء مما ذُكر، والله المستعان.

(١) رواه أبو داود (٤٢٦٣)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٧٥).

قال: سمعت أبا موسىٰ الأشعري ﷺ **يَقُولُ عَلَىٰ المِنبَرِ: قال رسول الله ﷺ:** «**إِنَّ بَينَ أَيدِيكُم فتنًا كقطع اللَّيلِ المُظلِمِ**»: هذا إخبار من النبي ﷺ من أمر كوني قضاه الله ﷻ وقدره، وهو كائن وواقع لإخبار النبي ﷺ لنا بذلك، وهذا ليس إخبارًا مجردًا؛ بل لبيان ما ينبغي أن يكون عليه المسلم الصادق مع الله ﷻ في مثل ذلك الوقت الذي تكون فيه الفتن كقطع الليل المظلم.

وقوله ﷺ: «**كقطع اللَّيلِ المُظلِمِ**»، حتىٰ يتضح ذلك: تَصَوَّر حالَ شخص له وجهة معينة، وطريق يريد الوصول إليه، لكنه في ليل مظلم وليس في يده مصباح، فكيف يكونُ حَالُه وسَيرُه؟ وقد يكون في طريقه أخشاب وحُفَر، فقطع الليل المُظلِم، السَّائر فيها لا يبصر طريقه، ولهذا لا ينجو في الفتن إلَّا من نجَّاه الله، وصَدق في لُجوئه إليه ﷻ.

«**إِنَّ بَينَ أَيدِيكُم فتنًا كقطع اللَّيلِ المُظلِمِ، يُصبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤمِنًا، وَيُمسِي كَافِرًا، وَيُمسِي مُؤمِنًا، وَيُصبِحُ كَافِرًا**»؛ بمعنىٰ: أن فيه تقلباتٍ، وليست القضية أن في الفتن قد يتحول المَرء من السُّنة إلىٰ البدعَة، أو من الطاعة إلىٰ المَعصية فقط، بل قد يبلغ الأمر به إلىٰ التَّحَولِ من الإيمان إلىٰ الكفر، والعياذ بالله.

وهذا تَنبيهٌ: إذا كان هناك تَحَوُّلٌ من الإيمان إلىٰ الكفر، **فَمَن باب أَولَىٰ أن تكون هناك تَحولاتٌ دُونَ ذلك:** تَحول من السُّنة إلىٰ البدعة، أو من الطاعة إلىٰ المعصية، فنبَّه بالأشدِّ علىٰ ما هو دونه، إلا مَن ثَبَّته الله ﷻ وسَلَّمه وعافاه.

قال: «**وَيُمسِي مُؤمِنًا وَيُصبِحُ كَافِرًا**» بعض الناس تكون الفتنُ سببًا لهدايته، والله ﷻ يجعل له نظرًا آخر إلىٰ الفتن، فيصلح وتتحول حاله إلىٰ الهداية.

ثمَّ بيَّن ﷺ ما المطلوب في الفتن، وأن الواجب علىٰ العبد ألَّا يستشرف للفتن ولا يبرز لها، قال: «**القَاعِدُ فِيهَا خَيرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ فِيهَا خَيرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيرٌ مِنَ السَّاعِي**»؛ بمعنىٰ: أنه كلَّما كان أبعد عن الفتن كان أسلم، وكلَّما كان أقرب إليها كان أخطر عليه، فإذا كان قاعدًا فهو خير من القائم، وإذا كان قائمًا كان خيرًا من الماشي، وإذا كان ماشيًا كان خيرًا من الساعي، بمعنىٰ: أنَّه كلما كان أقرب للفتن كان أشد وأخطر عليه، وكلما كان أبعد عنها كان أسلم له.

قالوا: فما تأمرنا؟، وهذا السؤال إنما يطرحه الحريص كما كان حالهم رضي الله عنهم، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «**كُونُوا أَحلَاسَ بُيُوتِكُم**»، أحلاس البيوت؛ أي: ملازمين للبيوت مثل الفراش الذي في البيت؛ أي: يلازم الإنسان بيته ولا يشرئب لهذه الفتن، ولا يكون له فيها لا يد ولا لسان ولا مشاركة؛ طلبًا للمعافاة والسلامة.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما الفتنة التي يُضيفها اللهُ سبحانه إلىٰ نفسه، أو يُضيفها رسولُه إليه، كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾ [الأنعام:٥٣]، وقول موسىٰ: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، فتلك بمعنىٰ آخر، وهي بمعنىٰ الامتحان، والاختبار، والابتلاء من الله لعباده بالخير والشر، بالنعم والمصائب، فهذه لون، وفتنةُ المشركين لون، وفتنة المؤمن في ماله وولده وجاره لون آخر، والفتنة التي يوقعها بين أهل الإسلام، كالفتنة التي أوقعها بين أصحاب علي ومعاوية، وبين أهل الجمل وصِفِّين، وبين المسلمين، حتىٰ يتقاتلوا ويتهاجروا لون آخر، وهي الفتنة التي قال فيها النبي ﷺ:

«سَتَكُونُ فِتنَةٌ، القَاعِدُ فيها خَيرٌ مِنَ القَائِمِ، والقائِمُ فِيهَا خَيرٌ من المَاشي، والماشي فيها خَيرٌ من السَّاعِي».

وأحاديثُ الفتنة التي أمر رسولُ الله ﷺ فيها باعتزال الطائفتين، هي هذه الفتنة، وقد تأتي الفتنة مرادًا بها المعصية، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ [التوبة: ٤٩]، يقوله الجدُّ بنُ قيس، لما ندبه رسولُ الله ﷺ إلىٰ تبوكَ، يقول: ائذن لي في القُعود، ولا تفتني بتعرضي لبنات بني الأصفر، فإني لا أَصبِرُ عنهن، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ [التوبة: ٤٩]؛ أي: وقعوا في فتنة النفاق، وفروا إليها مِن فتنة بناتِ الأصفر»[1].

❊ ❊ ❊

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٦٩).

٢٨- أَخبَرَنَا أَبُو القَاسِمِ عَبدُ المَلِكِ بنُ مُحَمَّدِ بنِ بِشرَانَ الوَاعِظُ الزَّاهِدُ قال: أَخبَرَنَا أَبُو بَكرٍ مُحَمَّدُ بنُ الحُسَينِ الآجُرِّيُّ قال: حَدَّثَنَا أَحمَدُ بنُ يَحيَىٰ الحُلوَانِيُّ قال: حَدَّثَنَا سَعِيدُ بنُ سُلَيمَانَ، عَن إِبرَاهِيمَ بنِ سَعدٍ، عَن أَبِيهِ، عَن أَبِي سَلَمَةَ عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَكُونُ فِتنَةٌ القَاعِدُ فِيهَا خَيرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيرٌ مِنَ السَّاعِي، مَن يَستَشرِف لَهَا تَستَشرِف لَهُ، وَمَن وَجَدَ مِنهَا مَلجَأً أَو مَعَاذًا فَليَعُذ بِهِ».

الشرح

ثم أورد ﵀ تعالىٰ هذا الحديث -حديث أبي هريرة ﵁- وهو بمعنىٰ الحديث الذي قبله -حديث أبي موسىٰ ﵁-.

جاء في «الصحيحين» أَنَّ أَبَا هُرَيرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سَتَكُونُ فِتَنٌ، القَاعِدُ فِيهَا خَيرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ فِيهَا خَيرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيرٌ مِنَ السَّاعِي، وَمَن يُشرِف لَهَا تَستَشرِفهُ، وَمَن وَجَدَ مَلجَأً أَو مَعَاذًا فَليَعُذ بِهِ»[(١)]، معنىٰ «يُشرِف لَهَا»؛ أي: يبرز لها، ويسعىٰ في طلبها، ويمشي إليها، ويبحث عنها.

ومعنىٰ «تَستَشرِفهُ» أو: «تَستَشرِف لَهُ»: إذا استشرفت له الفتنة وكان من أهلها أهلكته.

قال: «وَمَن وَجَدَ مِنهَا مَلجَأً أَو مَعَاذًا فَليَعُذ بِهِ»: مثلما تقدم في الحديث

(١) رواه البخاري (٣٦٠١)، ومسلم (٢٨٨٦).

الذي قبله لما قالوا: فما تأمرنا قال: «**كُونُوا أَحلَاسَ بيُوتِكُم**».

فإذن هذا وما قبله يدل علىٰ أن الواجب علىٰ المسلم في الفتن: طلب السلامة، والإمساك عن الخوض في الفتن، نقل الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «والإمساك في الفتنة سنة ماضية واجب احترامها، فإن ابتليت فقدِّم نفسك دون دينك، ولا تُعِن علىٰ الفتنة بيد ولا لسان، ولكن اكفف لسانك ويدك وهواك، والله المعين»(١).

❊ ❊ ❊

(١) «حادي الأرواح» (ص٢٨٩)، وهو في «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٦).

٢٩- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ أَحمَدَ بنِ رِزقَوَيهِ قال: أَخبَرَنَا إِسمَاعِيلُ بنُ مُحَمَّدٍ الصَّفَّارُ قال: حَدَّثَنَا أَحمَدُ بنُ مَنصُورٍ الرَّمَادِيُّ قال: حَدَّثَنَا عَبدُ الرَّزَّاقِ قال: أَخبَرَنَا مَعمَرٌ، عَنِ ابنِ طَاوُسٍ، عَن أَبِيهِ أنه قَالَ: لَمَّا وَقَعَت فِتنَةُ عُثمَانَ رضي الله عنه قَالَ رَجُلٌ مِنَ العَرَبِ لِأَهلِهِ: إِنِّي قَد جُنِنتُ فَقَيِّدُونِي فَقَيَّدُوه، فَلَمَّا زَالَتِ الفِتنَةُ قَالَ لَهُم: حُلُّوا قَيدِي، الحَمدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِنَ الجُنُونِ وَعَافَانِي مِن فِتنَةِ عُثمَانَ رضي الله عنه.

الشرح

ثم أورد هذا الأثر عن طاوس رحمه الله قال: «**لما وقعت فتنة عثمان** -أي: الفتنة التي كانت في زمن عثمان رضي الله عنه- **قال رجل من العرب لأهله: إني قد جننت فقيدوني**»[1]، وهذا الخبر -إن صح الإسناد- فلعل هذا الرجل وجد من نفسه ما يخشىٰ علىٰ نفسه منه من وقوعٍ؛ إما في دم حرام، أو تعدٍّ ظالم، وعَلم من نفسه هيجانًا في مثل ذلك، فخشي علىٰ نفسه، فقال: إني قد جننت فقيدوني، فقيدوه، والأمر في الهدي هدي النبي صلى الله عليه وسلم لم يبلغ هذا المبلغ، وإنما أمر الإنسان بمجاهدة النفس، ولزوم البيت دون أن يبلغ الأمر هذا الحد؛ لأنه أيضًا ثمَّة فرائض تحتاج لأن يكون المسلم طليق اليدين، يتوضأ ويصلي ويؤدي عبادة الله عز وجل، فالأمر في الهدي النبوي ما جاء بمثل هذا؛ لكن إن صح الإسناد فهذا الرجل خاف علىٰ نفسه أن يقع من أمرعظيم، واعتبر ذلك جنونًا، فطلب منهم ما طلب، فلما زالت الفتنة قال لهم: «**حلوا قيدي، الحمد لله الذي عافاني من الجنون**».

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٢٠٩٧٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٧٨).

وقوله: «الحمد لله الذي عافاني من الجنون»؛ فيه إشارة إلىٰ أن نفسه أصابها هيجان، وعدم انضباط، وكان خاشيًا علىٰ نفسه، فقال: الحمد لله الذي عافاني من الجنون وعافاني من فتنة عثمان؛ أي: أنه لم يكن له فيها خوض لا بيد، ولا بلسان.

وقول هذا الرجل: «إنني قد جننت» ربما أنه يحكي حقيقة تقع لبعض الناس، يعني: في الفتن يصاب بشيء من الاختلال، وعدم الانضباط، وعدم الاتزان، فيتعامل مع الأمور بلا عقل، وإنما يتعامل معها بهيجان النفس دون أناة ولا تَرَوٍّ وإعمالٍ للعقل، فيتعامل مع الأمور بلا تؤدة وبتهور واندفاع، ثم يكون منه أمور لا يُحمد عاقبتها.

❊ ❊ ❊

٣٠- أَخبَرَنَا أَبُو بَكرٍ مُحَمَّدُ بنُ عُمَرَ البَزَّازُ قال: أَخبَرَنَا أَبُو عَبدِ اللهِ الهَرَوِيُّ قال: أَخبَرَنَا أَبُو إِسحَاقَ قال: حَدَّثَنَا أَبُو عَبدِ اللهِ السَّمَرقَندِيُّ قَالَ: سَمِعتُ يَحيَىٰ ابنَ مُعَاذٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: «إِلَهِي، أَدعُوكَ بِلِسَانِ نِعَمِكَ، فَأَجِبنِي بِلِسَانِ كَرَمِكَ، إِلَهِي، إِذَا شَهِدَ لِيَ الإِيمَانُ بِتَوحِيدِكَ، وَنَطَقَ لِسَانِي بِتَحمِيدِكَ، وَدَلَّنِي القُرآنُ عَلَىٰ فَوَاضِلِ جُودِكَ، وَيَشفَعُ لِي مُحَمَّدٌ خَيرُ عَبِيدِكَ، فَكَيفَ لَا يَبتَهِجُ رَجَائِي بِحُسنِ مَوعُودِكَ؟».

الشرح

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الأثر عن يحيىٰ بن معاذ الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو مناجاة ودعاء يقول فيه رَحِمَهُ اللَّهُ: **«إِلَهِي، أَدعُوكَ بِلِسَانِ نِعَمِكَ، فَأَجِبنِي بِلِسَانِ كَرَمِكَ»**.

«أَدعُوكَ بِلِسَانِ نِعَمِكَ»؛ أي: أدعوك وأنا مستشعر نعمك عليَّ ومِنَنَك، وأن الفضلَ فضلُك، والمنَّ مَنُّك.

«فَأَجِبنِي بِلِسَانِ كَرَمِكَ»؛ أي: بأنك أنت الكريم المنان والمتفضل.

«إِلَهِي، إِذَا شَهِدَ لِيَ الإِيمَانُ بِتَوحِيدِكَ»: والتوحيد هو أعظم مطلب، وأجل مقصد، وأعظم وسيلة.

«وَنَطَقَ لِسَانِي بِتَحمِيدِكَ»؛ أي: اشتغل لساني حمدًا وثناء عليك.

«وَدَلَّنِي القُرآنُ عَلَىٰ فَوَاضِلِ جُودِكَ»: أنك المتفضل الجواد المنعم.

«وَيَشفَعُ لِي مُحَمَّدٌ خَيرُ عَبِيدِكَ»: ورد فيه ذكر شفاعة النبي ﷺ لأهل التوحيد؛ لأنه ذكر التوحيد والتحميد، وفي الحديث عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ أَنَّهُ قَالَ: «قِيلَ:

يَا رَسُولَ اللهِ، مَن أَسعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَومَ القِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **لَقَد ظَنَنتُ يَا أَبَا هُرَيرَةَ أَلَّا يَسأَلَنِي عَن هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنكَ، لِمَا رَأَيتُ مِن حِرصِكَ عَلَىٰ الحَدِيثِ، أَسعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَومَ القِيَامَةِ: مَن قَالَ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، خَالِصًا مِن قَلبِهِ أَو نَفسِهِ»**(١).

وتحدث رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن رجائه بالله عَزَّوَجَلَّ في هذه المناجاة، ومما يرجوه من الله تعالىٰ، بأن يجعله من أهل التوحيد، الذين يشفع لهم النبي الكريم -صلوات الله وسلامه عليه-.

«**فَكَيفَ لَا يَبتَهِجُ رَجَائِي بِحُسنِ مَوعُودِكَ**»: وهذا دعاء ومناجاة ينقل عن يحيىٰ بن معاذ الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكن الدعاء المأثور عن النبي الكريم ﷺ **يجمع بين أمرين عظيمين لابد من التنبه لهما:**

* **الأول**: أن دعواته ﷺ اشتملت علىٰ غاية المطالب العَلِيَّة، وكمال المقاصد الرفيعة.

* وفي الوقت نفسه دعواته ﷺ سالمة معصومة لا خطأ فيها ولا زلل؛ لأنها دعوات معصوم ليس فيها خطأ، وما سواه ﷺ كلامه قد يكون فيه نقص، وقد يكون فيه خطأ، وقد يكون غيره أولىٰ منه.

ولهذا فإن دعوات النبي ﷺ المأثورة جمعت الخير كله، وإذا وُفِّق المسلمُ لحفظها ودعاء الله بها، والعناية بما ورد في ذلك؛ فقد وفقه الله عَزَّوَجَلَّ لجماع

(١) رواه البخاري (٩٩).

الخير، وجماع المطالب، ولا يمنع ذلك أن المسلم إذا عرضت له حاجة أو حاجات معينة أن يناجي الله ﷻ، ويسأله تلك الحاجة ويسميها، لكن دائمًا تكون العناية بالدعوات العظيمة المأثورة عن النبي ﷺ التي هي جوامع الكلم، وجمعت الخير كله، وسالمة ومعصومة لا خطأ فيها ولا زلل.

❊ ❊ ❊

٣١- وَكَانَ يَحيَىٰ كَثِيرًا يَطلُبُ الخَلوَةَ وَالتَّفَرُّدَ مِنَ النَّاسِ، فَدَخَلَ عَلَيهِ أَخُوهُ ذَاتَ يَومٍ فَقَالَ لَهُ: «يَا أَخِي، كَم تَترُكُ مِنَ النَّاسِ؟! إِن كُنتَ مِنَ النَّاسِ فَلَابُدَّ مِنَ النَّاسِ. قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيهِ يَحيَىٰ ثُمَّ قَالَ: إِن كُنتَ مِنَ النَّاسِ فَلَابُدَّ مِنَ اللهِ، ثُمَّ أَنشَأَ يَحيَىٰ يَقُولُ:

دَعُـــوا بِاللَّـــهِ تَعْذَالِـــي ... فَمَـــا أَن تَفهَمُـــوا حَالِـــي
دَعُونِـــي وَاخـــرُجُوا عَنِّـــي ... رِجَـــالَ القِـــيلِ وَالقَـــالِ
فَـــيَا شَـــوقِي إِلَـــىٰ شَـــخصٍ ... إِلَـــىٰ الـــرَّحمَنِ مَـــيَّالِ
وَفِـــي سِـــرٍّ مِـــنَ الأَســـرَ ... ارِ حَطَّـــاطٍ وَرَحَّـــالِ

الشرح

قال: وكان يحيىٰ؛ أي: ابن معاذ الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ «**كثيرًا يَطلُبُ الخَلوَةَ وَالتَّفَرُّدَ مِنَ النَّاسِ**»؛ أي: يُؤْثِر التفرد وعدم الخلطة بالناس، «**فَدَخَلَ عَلَيهِ أَخُوهُ ذَاتَ يَومٍ**»؛ أي: يلومه علىٰ ذلك، فقال له: «**يَا أَخِي، كَم تَترُكُ مِنَ النَّاسِ؟!**»؛ أي: لا تخالطهم ولا تجالسهم ولا تؤانسهم، «**إِن كُنتَ مِنَ النَّاسِ فَلَابُدَّ مِنَ النَّاسِ**» ما دمت منهم لابد أن تخالطهم وأن تجالسهم، قال: فنظر إليه يحيىٰ ثمَّ قال: «**إِن كُنتَ مِنَ النَّاسِ فَلَابُدَّ مِنَ اللهِ**»؛ أي: تعبدًا وخضوعًا والتجاءً إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، ثم أنشأ يحيىٰ يقول مبيِّنًا سبب الحالة التي هو عليها، مبرِّرًا لِمَا فضَّله من الخلوة والتفرد من الناس، قال:

«**دَعُوا بِاللهِ تَعذَالِي**»؛ أي: لا تلوموني.

«**فَمَا أَنْ تَفهَمُوا حَالِي**»: لا تلوموني علىٰ ما أنا عليه والحال الذي أنا عليه؛ لأنكم لن تفهموا حالي، ولن تفهموا السبب الذي دفعني لذلك.

دَعُونِـــي وَاخــرُجُوا عَنِّـــي   رِجَــــالَ القِـــيلِ وَالقَــــالِ

بمعنىٰ: أنه وجد حالهم هكذا، قيل وقال، مثلًا: غيبة، ونميمة، وسخرية، وأشياء من هذا القبيل.

فَــيَا شَــوقِي إِلَــىٰ شَــخصٍ   إِلَـــىٰ الـــرَّحمَنِ مَـــيَّالِ

بمعنىٰ: أني لا أمتنع من المخالطة لو كنت أجد شخصًا يعينني علىٰ الطاعة وعلىٰ العبادة، ويشد من أزري ويقومني، فأنا أتمنىٰ أن أجد شخصًا تكون هذه حاله.

وَفِــي سِــرٍّ مِــنَ الأَســرَ   ارِ حَطَّـــــاطٍ وَرَحَّــــالِ

أي: أن يكون حافظًا لسرِّ أخيه، ومعوانًا له علىٰ الخير.

❁ ❁ ❁

٣٢- وَأَنشَدَ إِبرَاهِيمُ بنُ عَبدِ المَلِكِ:

مَــن حَـمِـدَ الــنَّـاسَ وَلَـم يَـبـلُهُم ... ثُــمَّ بَلَاهُــم ذَمَّ مَـــن يَحمَـــدُ

وَصَـــارَ بِالـــوَحدَةِ مُستَأنِـــسًا ... يُوحِـــشُهُ الأَقـــرَبُ وَالأَبعَـــدُ

الشرح

ثُمَّ أورد هذين البيتين لإبراهيم بن عبد الملك قال: «**مَن حَمِدَ النَّاسَ وَلَم يَبلُهُم**»: (حمدهم)؛ أي: أثنىٰ عليهم ومدحهم وأعجبوه، (ولم يبلهم)؛ أي: لم يمتحنهم ويعرف أحوالهم جيدًا.

«**ثُمَّ بَلَاهُم**» عرفهم وعرف حالهم.

«................................... .... **ذَمَّ مَن يَحمَدُ**

وَصَـــارَ بِالـــوَحدَةِ مُستَأنِـــسًا ... يُوحِـــشُهُ الأَقـــرَبُ وَالأَبعَـــدُ»:

ولكن مع ذلك فإنه في كل زمان لا يزال الخير باقٍ، والإنسان في هذا الباب يتوسط ويعتدل، يُجَانِبُ الشر والفساد والظلمات وأهل الباطل، ويحرص علىٰ الخير والاعتدال والسنة والتوسط، فالدين وسط لا غلو ولا جفاء، لا ينحرف الإنسان إلىٰ الباطل، ولا يهجر أهل الحق والخير والفضل؛ بل يكون معتدلًا في ذلك.

❊ ❊ ❊

٣٣- وَأَنشَدَ الحُسَينُ بن عبد الرَّحمَن:

طِـــبْ عَـــنِ الأُمَّـــةِ نَفــسًا   وَارضَ بِالــــوَحدَةِ أُنـــسَا
مَـــا رَأَيـــنَا أَحَـــدًا يَـــسوَىٰ   عَلَـــىٰ الخِبـــرَةِ فَلْـــسَا

الشرح

يقول هذا الشاعر: «**طِبْ عَنِ الأُمَّةِ نَفسًا**»؛ أي: لن تجد من تأنس بمجالسته وتنعم بمرافقته ومصاحبته.

«**وَارضَ بِالوَحدَةِ أُنسَا**»؛ أي: لن تجد أنسًا مثل الانفراد والخلوة بنفسك.

مَـــا رَأَيـــنَا أَحَـــدًا يَـــسوَىٰ   عَلَـــىٰ الخِبـــرَةِ فَلْـــسَا

يعني: كل من اختبرناه وجدناه لا يساوي فَلْسًا، هذا يتحدث عن الشيء الذي رآه هو، ولكن -كما ذُكر من قبل- فإنَّه يبقىٰ الخير في كل زمان.

وهذا الأنس الذي ذكره باعتبار الحال الذي كان عليه، وكذا الأشخاص الذين قُدِّر له أن يكون لقاؤه بهم، ثم توصل إلىٰ هذه النتيجة، وهو أن الأنس إنما يكون بذلك.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من فقد أنسه بالله بين الناس ووجده في الوحدة فهو صادق ضعيف، ومن وجده بين الناس وفقده في الخلوة فهو معلول»؛ أي: أصابته علة، ففي خلوته لا يأنس، بينما المؤمن الصادق في خلوته يأنس بالله، وتكون فرصة له لمزيد الصلة بالله والدعاء والأنس بذكره ومناجاته عَزَّوَجَلَّ، ثم قال: «ومن وجده بين الناس وفقده في الخلوة فهو معلول، ومن فقده بين الناس

وفي الخلوة فهو ميت مطرود، ومن وجده في الخلوة وفي الناس فهو المحب الصادق القوي في حاله»[١]، وهو كلام متين.

❊ ❊ ❊

---

(١) «الفوائد» (ص٤٣).

٣٤- وَأَنشَدَ أَبُو بَكرِ بنُ مُسلِمٍ:

تَوَحَّش مِنَ الإِخوَانِ لَا تَبغِ مُؤنِسًا ... وَلَا تَتَّخِذ خِلًّا وَلَا تَبغِ صَاحِبَا
وَكُن سَامِرِيَّ الفِعلِ مِن نَسلِ آدَمٍ ... وَكُن أَوحَدِيًّا مَا حَيِيتَ مُجَانِبَا
فَقَد فَسَدَ الإِخوَانُ وَالحُبُّ وَالهَوَىٰ ... فَلَستَ تَرَىٰ إِلَّا صَدُوقًا وَكَاذِبَا
فَوَاللَّهِ لَولَا أَن يُقَالَ مُدَهدَهٌ ... وَتُنكَرُ أَحوَالِي لَقَد صِرتُ رَاهِبَا

الشرح

هذا أيضًا مثل ما سبق، الاستيحاش من الإخوان وإيثار الوحدة؛ لأنه لم يجد، لكن من صدق مع الله تعالىٰ في طلب التوفيق من إخوان الخير ورفقة أهل الصلاح وتحراهم فإنه يجدهم بإذن الله، والخير باقٍ، لكن يحتاج الإنسان في هذا المقام أن يتفقه فيمن يجالس، ولا ييأس، عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الرَّجُلُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنظُرْ أَحَدُكُم مَن يُخَالِلُ**»[(١)].

ما دعا ﷺ إلىٰ الانقطاع، ولكن يتفقه الإنسان، وينظر فيمن يخالل، والخير باقٍ، عن المُغِيرَةِ بنِ شُعبَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا يَزَالُ نَاسٌ مِن أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّىٰ يَأتِيَهُم أَمرُ اللهِ وَهُم ظَاهِرُونَ**»[(٢)]، فالخير بَاقٍ.

فإذا وجد شخصًا يعينه علىٰ الخير، ويؤازره عليه، ويشد من أزره؛ فرح

(١) رواه الترمذي (٢٣٧٨)، وأبو داود (٤٨٣٣)، وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود» (٤٨٣٣).

(٢) رواه البخاري (٣٦٤٠) واللفظ له، ورواه مسلم (١٩٢٠).

بصحبته وملازمته، أما إذا وجد من يُعينه علىٰ الشر، وعلىٰ الفساد، أو علىٰ الأهواء، أو علىٰ الباطل؛ يحذر من ذلك.

وهذا الناظم كالذي مرَّ معنا في ذكر الحال التي واجهها قال:

تَوَحَّش مِنَ الإِخوَانِ لَا تَبغِ مُؤنِسًا ... وَلَا تَتَّخِذ خِلًّا وَلَا تَبغِ صَاحِبَا

وَكُن سَامِرِيَّ الفِعلِ مِن نَسلِ آدَمٍ ... وَكُن أَوحَدِيًا مَا حَيِيتَ مُجَانِبَا

«**سَامِرِيَّ الفِعلِ**»؛ أي: كن في فعلك سامريًّا، وهو الذي ذُكِرَ في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه:٩٧]، أي: لا أحد يقربني، ولا أحد يمسني، وعوقب بذلك، وقيل في بعض كتب التفسير: أنه إن مسه أحد أصيب باشتداد في حرارة جسمه وألم فيه، فيحرص علىٰ أن لا أحد يقربه، ولا أحد يلمسه، فيقول هذا.

«**وَكُن سَامِرِيَّ الفِعلِ**»: والسامري الفعل الذي كان عليه عقوبة له أن لا يمسه أحد، ولكن هذا المعنىٰ لا يُطلب من المسلم؛ بل يقترب من إخوانه ويتعاون معهم علىٰ الخير ويحرص عليه، ويكون من أهله، ولكن يتجنب الشر والفساد و الفتن ومواردها.

يقول معلِّلًا لِمَا سبق:

فَقَد فَسَدَ الإِخوَانُ وَالحُبُّ وَالهَوَىٰ ... فَلَستَ تَرَىٰ إِلَّا صَدُوقًا وَكَاذِبَا

أي: إلَّا مَن جمع بينهما. قد يكون هذا، أو: ترىٰ صدوقًا أو كذوبًا، وهذا هو الصحيح، فالناس فيهم الصدوق وفيهم الكذوب، فرافِق الصدوق، وتجنب الكذوب.

«**فَوَاللهِ لَولَا أَن يُقَالَ مُدَهدَهٌ**»: هذه الكلمة مستعملة حتىٰ في هذا الوقت، فربما يكون فيها تغير في أسلوب النطق فقط، ويقصد بها الإنسان الخبل الفاقد الوعي، وفي اللغة العربية أيضا هذا هو معناها، وهي مستعملة بالمعنىٰ نفسه، فيقول: «**فَوَاللهِ لَولَا أَن يُقَالَ مُدَهدَهٌ**»؛ أي: غير واعٍ «**وَتُنكَرُ أَحوَالِي لَقَد صِرتُ رَاهِبَا**».

وملخص الكلام: الاعتدال والاهتداء بهدي النبي ﷺ مطلوب، والمسلم مطالب بتجنب الشر والفساد، وملازمة الحق والهدىٰ، والتوفيق بيد الله وحده لا شريك له.

❊ ❊ ❊

بَابُ الاشتِغَالِ بِمَا يُغنِي وَتَركِ الخَوضِ فِيمَا لاَ يَعنِي

٣٥- أَخبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ الحَسَنُ بنُ شِهَابِ بنِ الحَسَنِ العُكبَرِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَبدِ اللهِ عُبَيدُ اللهِ بنُ مُحَمَّدِ بنِ حَمدَانَ بنِ بَطَّةَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ إِسحَاقُ بنُ إِبرَاهِيمَ الحُلوَانِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو يُوسُفَ يَعقُوبُ بنُ يُوسُفَ بنِ دِينَارٍ البَغدَادِيُّ، حَدَّثَنَا يزِيدُ بنُ عَبدِ رَبِّهِ، حَدَّثَنَا بَقِيَّةُ بنُ الوَلِيدِ، عَنِ الأَوزَاعِيِّ، عَنِ الزُّهرِيِّ، عَن أَبِي سَلَمَةَ بنِ عَبدِ الرَّحمَنِ، عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مِن حُسنِ إِسلَامِ المَرءِ تَركُهُ مَا لَا يَعنِيهِ».

الشرح

قال ابن البنَّاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بابٌ: الاشتغال بما يُغني وترك الخوض فيما لا يعني»؛ هذه الترجمة عقدها رَحِمَهُ ٱللَّهُ للحثِّ علىٰ أمرٍ، والتحذير من أمر آخر، فعقدها رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبيان أهميَّة اشتغال الإنسان بما يُغنيه.

ومعنىٰ «يُغنيه»؛ أي: يكون فيه فلاحه وانتفاعه، وسعادته في دنياه وأخراه.

والمراد: «بما يُغني»؛ أي: في أمر دينك ودنياك، وتكون فيه سعادتك في الدنيا والآخرة؛ فهذا الذي ينبغي أن يشتغل به العبد، وتتوافر عليه أوقاته.

«**وترك الخوض فيما لا يعني**»؛ أي: يتجنَّب الخوض فيما لا يعنيه، والمراد بـ«**ما لا يعنيه**»؛ أي: من الأقوال والأفعال، والمراد بـ: «**ما لا يعنيه**»؛ أي: في دينه ومصلحته ومنفعته.

أورد تحت هذه الترجمة حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مِن حُسنِ إسلامِ المَرءِ تركُهُ ما لا يَعنِيه**»(١).

وقوله صلى الله عليه وسلم: «**مِن حُسنِ إسلامِ المَرءِ**» هذا يُفيد أنَّ الإسلام يزيد وينقص، ويقوىٰ ويضعف، ويتفاوت أهله فيه بحسب حالهم وحظِّهم من أعمال الإسلام، بما في ذلك تجنُّب الحرام، وهذا أيضا يُفيد أنَّ الإسلام كما أنَّه يزيد بفعل الطَّاعات، فإنه كذلك يزيدُ بتجنُّب المعاصي والخطيئات؛لأنَّ الحديث دلَّ علىٰ أنَّ ترك المعصية إسلام، كما أنَّ فعل الطاعة إسلام، فمن الإسلام ترك ما لا يعني، كما أنَّ من الإسلام فعل ما يُغني، كما هو واضح في الترجمة التي بوَّب لها المصنف رحمه الله.

فقوله: «**تركُهُ**» هذا يُفيد أنَّ التَّرك إسلام، وقد ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**لَا يَزنِي الزَّانِي حِينَ يَزنِيٰ وَهوَ مُؤمِنٌ، وَلَا يَشرَبُ الخَمرَ حِينَ يَشرَبُهَا وَهوَ مُؤمِنٌ، وَلَا يَسرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسرِقُ وَهوَ مُؤمِنٌ**»(٢).

وهذا يُفيد فائدة مهمَّة جدًّا في تعريف الإيمان، وهي: أَنَّ مِمَّا يدخل في مُسمَّىٰ

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٢١١).

(٢) رواه البخاري (٥٥٧٨)، ومسلم (٥٧).

الإيمان ترك المُحرَّمات، كما أنَّه يدخل في مسمَّىٰ الإيمان فعل الطَّاعات، فالإيمان فعلٌ وتركٌ، فعلٌ لِمَا أمَرَ الله به، وتركٌ لِمَا نهىٰ الله ﷻ عنه، فكما أنَّ فعل الطاعات إيمان، فإنَّ ترك المعاصي أيضًا إيمان.

وقوله: «**ما لا يعنيه**»؛ أي: ما لا يعنيه من الأقوال والأفعال.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعنىٰ هذا الحديث: أنَّ مِن حُسن إسلامه تَركَ ما لا يعنيه من قولٍ وفعلٍ، واقتصر علىٰ ما يعنيه من الأقوال والأفعال، ومعنىٰ «يعنيه»: أن تتعلق عنايتُه به، ويكونُ من مقصده ومطلوبه، والعنايةُ: شدَّةُ الاهتمام بالشيء، يقال: عناه، يعنيه؛ إذا اهتمَّ به وطلبه، وليس المُراد أنَّه يترك ما لا عناية له به، ولا إرادة بحكم الهوىٰ وطلب النفس، بل بحكم الشرع والإسلام، ولهذا جعله من حُسن الإسلام، فإذا حَسُنَ إسلامُ المرء، ترك ما لا يعنيه في الإسلام من الأقوال والأفعال»[(١)].

ولهذا بعض الناس قد يفهم الحديث علىٰ المعنىٰ الخاطئ الذي نبَّه عليه رَحِمَهُ اللَّهُ، تجد مثلًا إنسانًا ينهىٰ عن منكر بحكمة وأناة وأسلوب جيد، فيقول له آخر: «**مِن حُسن إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه**»؛ ينهاه ويقول له: لا تفعل، فهذا من الخطأ في فهم الحديث؛ لأن الحديث ليس المراد به ما يعنيه بحكم الهوىٰ، أو الطبع، أو ميل النفس، وإنما يعنيه بحكم الشرع والإسلام، **فممَّا يعني المسلمَ بحكم الشرع**: الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر؛ فهذا مطلوب منه بحكم الشرع.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص١١٤).

ثم قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا حسُن إسلام المرء ترَك ما لا يعنيه في الإسلام من الأقوال والأفعال، وإذا حسُن الإسلام اقتضىٰ ترك ما لا يعنيه كله؛ من المحرمات، والمشتبهات، والمكروهات، وفضول المباحات التي لا يحتاج إليها، فإن هذا كله لا يعني المسلمَ إذا كمُل إسلامه»(١).

وانظر هذا الفقه والفهم للحديث، عندما يتجنَّب الإنسانُ المحرَّمَ تَرَك ما لا يعنيه، عندما يتجنَّب المكروهَ ترك ما لا يعنيه، عندما يتجنَّب المشتبه ترك ما لا يعنيه، ترك ما لا يعنيه بحكم الشَّرع، وهذا هو فهم الحديث، والذي به يكمل إسلام المرء.

❊ ❊ ❊

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص١١٤).

٣٦- وَأَخبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ، أَخبَرَنَا أَبُو عَبدِ اللهِ، حَدَّثَنَا إِسمَاعِيلُ بنُ العَبَّاسِ الوَرَّاقُ، حَدَّثَنَا أَحمَدُ بنُ مُلَاعِبٍ، حَدَّثَنَا سَعدُ بنُ عَبدِ الحَمِيدِ، حَدَّثَنَا عِصَامُ بنُ طُلَيقٍ، عَن سَعِيدٍ، عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَكثَرُ النَّاسِ ذُنُوبًا أَكثَرُهُم كَلَامًا فِيمَا لَا يَعنِيهِ».

الشرح

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث -حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله ﷺ: «**أكثر الناس ذنوبًا أكثرهم كلامًا فيما لا يعنيه**»؛ وهذا المعنىٰ دلَّت عليه نصوص كثيرة جدًّا؛ أنَّ أكثر الذنوب تنطلق من اللسان.

وقد مرَّ معنا الحديث: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِذَا أَصبَحَ ابنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ**[1] **فَتَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا، فَإِنَّمَا نَحنُ بِكَ؛ فَإِنِ استَقَمتَ استَقَمنَا، وَإِنِ اعوَجَجتَ اعوَجَجنَا**»[2]؛ فاعوجاجُ اللِّسان يترتَّب عليه اعوجاج الجوارح كلِّها، فعَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَستَقِيمُ إِيمَانُ عَبدٍ حَتَّىٰ يَستَقِيمَ قَلبُهُ، وَلَا يَستَقِيمُ قَلبُهُ حَتَّىٰ يَستَقِيمَ لِسَانُهُ**»[3]؛ فاستقامة اللِّسان به

---

(١) «(**تُكَفِّرُ اللِّسَانَ**) بِتَشدِيدِ الفَاءِ المَكسُورَةِ أَي: تَتَذَلَّلُ وَتَتَوَاضَعُ لَهُ مِن قَولِهِم: (كَفَّرَ اليَهُودِيُّ) إِذَا خَضَعَ مُطَأطأ رَأسَهُ وَانحَنَىٰ لِتَعظِيمِ صَاحِبِهِ، كَذَا قِيلَ؛ وَقَالَ فِي (النِّهَايَةِ): التَّكفِيرُ هُوَ أَن يَنحَنِيَ الإِنسَانُ وَيُطَأطِئُ رَأسَهُ قَرِيبًا مِنَ الرُّكُوعِ كَمَا يَفعَلُ مَن يُرِيدُ تَعظِيمَ صَاحِبِهِ». «تحفة الأحوذي» (٧/ ٧٥).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٠٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٥٠١).

(٣) رواه أحمد (١٣٠٤٨)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٥٥٤).

استقامة البدن، واعوجاج اللِّسان به أيضًا اعوجاج البدن وجميع الجوارح.

فمن كثُر كلامه فيما لا يعنيه كثرت ذنوبه: الغِيبة، النميمة، السخرية، الكذب، الاستهزاء، إلىٰ غير ذلك من الأقوال الباطلة المحرمة، كلها لا تعني المسلم بحكم الشرع، فمعنىٰ «لا تعنيه»؛ أي: لا ينبغي أن يصرف لها عنايته واهتمامه، بل يبتعد عنها، فإذا لم يُبالِ بذلك وأخذ يتكلم فيما لا يعنيه كثرت ذنوبه، ومثل هذا المعنىٰ ما جاء عن عمر بن الخطاب ﵁ قال: «من كثر ضحكه قلَّت هيبته، ومن كثر مزاحه استُخِفَّ به، ومن أكثر من شيء عُرِفَ به، **ومن كَثُر كلامه كَثُر سقطه** وقلَّ حياؤه، ومن قلَّ حياؤه قلَّ ورعه، و من قلَّ ورعه مات قلبه»[١]، وهذا المعنىٰ جاء في نصوص وآثار كثيرة عن السلف.

وإسنادُ هذا الحديث فيه عصام بن طليق؛ «قال ابن معين: (ليس بشيء)، وقال البخاري: (مجهول منكر الحديث)»[٢]، فهو إسناد ضعيف لكن رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص١٥٠)، موقوفًا علىٰ سلمان، ورواه وكيع في «الزهد» (٢٧٧) موقوفًا علىٰ عبد الله بن مسعود، وهو من حيث المعنىٰ واضح ويشهد لصحة المعنىٰ وقوته نصوص كثيرة أشرت إلىٰ بعضها[٣].

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٩٩٤).

(٢) «ميزان الاعتدال» (٥/ ٨٥).

(٣) وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٢٧٧).

٣٧- قَالَ: أَخبَرَنَا أَبُو القَاسِمِ عَبدُ العَزِيزِ بنُ مُحَمَّدِ بنِ جعفرٍ العَطَّارُ، أَخبَرَنَا ابنُ الصَّوَّافِ، حَدَّثنَا عَبدُ اللهِ بنُ أَحمَدَ بنِ حَنبَلٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثنَا حُسَينُ بنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثنَا المَسعُودِيُّ، عَن عَونٍ: أَنَّ امرَأَةً قَالَت: قَد أَوجَبتُ، قَد بَايَعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَا عَمِلتُ كَبِيرَةً، فَأُرِيَت فِي المَنَامِ فَقِيلَ لَهَا: يَا فُلَانَةُ، أَنتِ القَائِلَةُ كَذَا وَكَذَا؟ وَأَنتِ تَنطِقِينَ فِيمَا لَا يَعنِيكِ وَتَمنَعِينَ مَا لَا يَضُرُّكِ.

الشرح

ثُمَّ أورد هذا الأثر: «**أن امرأة قالت: قد أوجبت**» ومعنىٰ: «**أوجبتُ**»؛ أي: وجبت لي الجنة؛ وجبت لي النجاة، وذكرَت أمرين تَعلَمُهما من نفسها، قالت: «**بايعتُ رسولَ الله ﷺ وما عَمِلتُ كبيرة**»؛ بايعَتهُ علىٰ الطاعة والعبادة والبُعد عن الشرك بالله، والبُعد عن الزنا، والإتيان بالبهتان ونحو ذلك؛ تقول: «**وما عملتُ كبيرةً، فأُريت في المنام، فقيل لها: يا فلانة، أنت القائلة كذا وكذا؟** -أي: أوجبتُ -إلىٰ آخره- **وأنتِ تنطقين فيما لا يعنيك، وتمنعين ما لا يضرك**».

فالشَّاهد منه أنه قيل لها في هذه الرؤيا: «**وأنتِ تنطقين فيما لا يعنيك**»، وهذه الرؤيا -إن صحَّت- فيها شاهدٌ لكلام أهل العلم أن الرؤىٰ المناميَّة تكون للبِشارة، وتكون للنِّذارة، لا لتقرير الأحكام؛ لأنها لا تُؤخذ من الرؤيا المنامية، إنما تُؤخذ من الشرع: كلام الله، وكلام رسوله، لكن قد يؤخذ منها البشارة، كأن يكون شخص مثلًا غير مستقيم ويبدأ الصلاة ويعبد الله، فيرىٰ رؤيا في المنام مفرحة ويرىٰ فيها سعادته، وأشياءَ مِن هذا القبيل، فيستبشر وينشط، وكما قال

الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره»[١]، فتُنشِّطه وتدعوه إلىٰ المزيد من العبادة ولا يغتر، فتكون للبشارة وتكون للنذارة مثل هذه القصة.

فقيل لها: وأنتِ تنطقين بكذا، وتقولين كذا؛ فهذا نذارة لها، فإن صحت هذه الرؤيا أو هذا الخبر فهذا من قبيل ما ذكره أهل العلم أنها للنذارة؛ لأن اللسان والنُّطق به بما لا يعنيه (الغِيبة، النميمة، السخرية، الكذب، الفجور، البهت... إلىٰ غير ذلك) أمرها ليس بالهيِّن، بل خطير جدًّا، حتىٰ لو كان الإنسان مُحافظًا علىٰ الصلوات والصيام والصدقات فرضها ونفلها.

قد جاء في «الأدب المفرد»[٢] بسند صحيح عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قيل للنَّبي ﷺ: «يا رسول الله، إنَّ فلانة تقوم اللَّيل، وتصوم النَّهار، وتفعل، وتصدق، وتؤذي جيرانها بلسانها، فقال رسول الله ﷺ: **لا خير فيها، هي من أهل النار**.

قالوا: وفلانة تصلِّي المكتوبة وتَصَّدَّق بأثوار ولا تؤذي أحدًا، فقال: رسول الله ﷺ: **هي من أهل الجنة**».

فالأولىٰ كانت تقوم الليل وتصوم النهار؛ صوامة قوامة ومنفقة تتصدق بكذا وكذا، وقال ﷺ: «**هي من أهل النار**» لِما ذُكر عنها أنها تؤذي جيرانها بلسانها، فأمرُ اللسان ليس بالهيِّن.

❃ ❃ ❃

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢٢٧).

(٢) برقم (١١٩)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٨٨).

٣٨- قال: أَخبَرَنَا أَبُو الحُسَينِ مُحَمَّدُ بنُ الحُسَينِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ الفَضلِ القطَّان، أخبرنَا أبو عمرو عُثمَانُ بنُ أَحمَدَ السَّمَّاكُ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بنُ إِبرَاهِيمَ أَبُو الحَسَنِ الوَاسِطِيُّ، حَدَّثنَا حَجَّاجُ بنُ نُصَيرٍ قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ بنُ مَريَمَ عليه السلام: «خَتَمَ المَلَكُ الخَيرَ فِي ثَلَاثٍ: فِي المَنطِقِ، وَالصَّمتِ، وَالنَّظَرِ، فَمَا كَانَ مِن مَنطِقٍ فِي غَيرِ ذِكرٍ فَهُوَ لَغوٌ، وَمَا كَانَ مِن صَمتٍ فِي غَيرِ تَفَكُّرٍ فَهُوَ سَهوٌ، وَمَا كَانَ مِن مَنظَرٍ فِي غَيرِ عِبرَةٍ فَهُوَ لَهوٌ».

الشرح

ثم أورد هذا الخبر عن حَجَّاج بن نصير[1]، وهو ضعيف، ويروي هذا الخبر عن عيسىٰ عليه السلام، فكم بينه وبين عيسىٰ بن مريم؟! فمثلُ هذه الأخبار المرسلة هكذا لا تُعتَمد، وذِكرُ أهل العلم لها -كما تقدم- يذكرونها لِما تشتمل عليه من معانٍ صحيحة وجيدة، وتُذكر استئناسًا فقط.

قال: «**قال عيسىٰ عليه السلام: ختم المَلَكُ الخيرَ في ثلاث: في المنطق، والصمت، والنظر**»؛ يعني: أن الخير في هذه الثلاث عندما تَحسُن صيانتها: منطق الإنسان، وصمته، ونظره.

ثم بيَّن ذلك فقال: «**فَمَا كَانَ مِن مَنطِقٍ فِي غَيرِ ذِكرٍ فَهُوَ لَغوٌ، وَمَا كَانَ مِن صَمتٍ فِي غَيرِ تَفَكُّرٍ فَهُوَ سَهوٌ، وَمَا كَانَ مِن مَنظَرٍ فِي غَيرِ عِبرَةٍ فَهُوَ لَهوٌ**».

(١) وهو ضعيف كما في «تقريب التهذيب» (١١٣٩).

«**ما كان من منطق في غير ذكر فهو لغو**»: فيه أن اللِّسان إن لم يُشغَل بذكر الله والخير والنفع اشتغل بالباطل؛ لأن اللسان خُلق للكلام، فإن لم يشغله صاحبه بالخير اشتغل باللهو واللغو والباطل.

وفي هذا المعنىٰ يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ في الاشتغال بالذِّكر اشتغالًا عن الكلام الباطل؛ من الغِيبة، واللَّغو، ومدح الناس، وذمهم، وغير ذلك، فإنَّ الإنسان لا يسكت ألبتَّة: فإمَّا لسان ذاكر، وإمَّا لسان لاغٍ، ولابد من أحدهما، فهي النَّفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، وهو القلب إن لم تسكُنهُ محبَّةُ الله عَجَّلَ سكَنَهُ محبَّةُ المخلوقين ولابد، وهو **اللِّسان إن لم تشغله بالذِّكر شغلك باللغو وما هو عليك ولابد،** فاختر لنفسك إحدىٰ الخُطتين، وأنزلها في إحدىٰ المنزلتين»(١).

❁ ❁ ❁

---

(١) «الوابل الصيب» (ص١١١).

٣٩- قال: أخبرنَا أَبُو الفَتْحِ هِلَالُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ جعفرٍ الْحَفَّارُ، أَخْبَرَنَا عُمَرُ ابْنُ أَحْمَدَ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ، حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا، حَدَّثَنَا الْأَصْمَعِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ قَالَ: قَالَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ لِابْنِهِ: «يَا بُنَيَّ، اطْلُبْ مَا يَعْنِيك بترك مَا لا يَعْنِيك، فَإِنَّ فِي تَرْكِ مَا لَا يَعْنِيكَ دَرَكًا لِمَا يَعْنِيكَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ تَقْدَمُ عَلَىٰ مَا قَدَّمْتَ، وَلَسْتَ تَقْدَمُ عَلَىٰ مَا أَخَّرْتَ، فَآثِرْ مَا تَلْقَاهُ غَدًا عَلَىٰ مَا لَا تَرَاهُ أَبَدًا».

الشرح

هذا كلام عظيم جدًّا، فيه وصية زيد بن علي لابنه قال: «**يا بنيَّ، اطلب ما يعنيك بترك ما لا يعنيك**»، إذا قال قائل: كيف أتمكن من تَرك ما لا يعنيني؟ يُقال: إنما تتمكن من ترك ما لا يعنيك بشغل وقتك فيما يعنيك؛ لأنك إن لم تشغل وقتك فيما يعنيك انشغل وقتك فيما لا يعنيك، فالطريقة السليمة الصحيحة لاشتغال المرء عن ما لا يعنيه بأن يشغل نفسه فيما يعنيه.

قال: «**فإن في ترك ما لا يعنيك دَرَكًا لما يعنيك**»؛ أكبرُ عونٍ لك علىٰ إدراك ما يعنيك: أن تترك ما لا يعنيك، وهذا يفيد أن اشتغال الإنسان بما لا يعنيه يفوِّته تحصيل الخير مما يعنيه في دينه ودنياه وطاعته لربه ﷻ.

«**واعلم أنك تقدم علىٰ ما قدمت**»؛ أي: الذي تلقاه يوم القيامة هو الذي قدَّمته متقربًا به إلىٰ الله.

«**ولست تقدم علىٰ ما أخرت**»؛ يعني: الأموال والتجارات والأملاك وغير ذلك، إذا لم تُقدِّم شيئًا منها لله فإنها لن تقدم عليك؛ لأنك ستتركها في الدنيا

وينتهي أمرها في هذه الدار، ولن تقدم عليه يوم القيامة.

عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﵁: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يَقُولُ العَبدُ: مَالِي مَالِي، إِنَّمَا لَهُ مِن مَالِهِ ثَلَاثٌ: مَا أَكَلَ فَأَفنىٰ، أَو لَبِسَ فَأَبلَىٰ، أَو أَعطَىٰ فَاقتَنىٰ، وَمَا سِوَىٰ ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ**»[١].

وليس للإنسان إلا ما قدَّم؛ الشَّيء الَّذي قدَّمه لله، وتقرَّب به إلىٰ الله، وبذله في سبيل الله، هو الَّذي يلقاه يوم القيامة، أمَّا بيوته وتجاراته ومزارعه وأملاكه كلها لا يَقدمُ عليها يومَ القيامة إن لم يكن قدَّمها لله، وبذلها قربة إليه ﷻ.

«**ولست تقدم علىٰ ما أخَّرت**»؛ والمراد «**ما أخَّرت**» يعني: ما تركته في الدُّنيا لم تُقدِّمه لله ﷻ.

«**فآثر ما تلقاه غدًا علىٰ ما لا تراه أبدًا**»: «**آثر ما تلقاه غدًا**»؛ أي: ممَّا قدمت في سبيل الله، «**علىٰ ما لا تراه أبدًا**»؛ أي: إذا متَّ لن تراه أبدًا؛ لأنَّه ليس لك من مالك إلا ما قدَّمت.

* * *

(١) رواه مسلم (٢٩٥٩).

٤٠ - وَفِي مَعناهُ:

اغْتَنِمْ فِي الْفَرَاغِ فَضلَ رُكُوعٍ ... فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مَوْتُكَ بَغْتَهْ

كَمْ صَحِيحٍ رَأَيْتَ مِنْ غَيْرِ سُقْمٍ ... ذَهَبَتْ نَفْسُهُ الصَّحِيحَةُ فَلْتَهْ

الشرح

وهذا كلام عظيم جدًّا في الحثِّ علىٰ اغتنام الفراغ، والفراغ مغبونٌ فيه كثير من الناس، عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**نِعمَتَانِ مَغبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ، وَالفَرَاغُ**»[(١)]، فكثير من الناس عنده صحَّة لكنَّه لا يغتنمها في شيء يجده يوم يلقىٰ الله، وعنده سعة في الوقت ولا يغتنمه في شيء يجده يوم يلقىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، فأكثر النَّاس مغبون؛ أي: خاسر؛ لم يَغنم وقته وصحَّته.

اغْتَنِمْ فِي الْفَرَاغِ فَضلَ رُكُوعٍ ... فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مَوْتُكَ بَغْتَهْ

ما تدري! قد يُفاجئك الموتُ ولا تعيش إلىٰ الزمان الذي تظن أنك تدركه، أو تُؤمِّل أن تعيشه.

كَمْ صَحِيحٍ رَأَيْتَ مِنْ غَيْرِ سُقْمٍ ... ذَهَبَتْ نَفْسُهُ الصَّحِيحَةُ فَلْتَهْ

وهذا يراه الناس كثيرًا في حياتهم، فترىٰ المعافىٰ والصحيح لا يموت في حادث أو مرض، وإنما يموت علىٰ فراشه، ويُسأل قرابته: هل كان يشتكي من شيء؟ يقول: لا؛ ما كان يشتكي، لكنه وُجِد ميتًا علىٰ فراشه.

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٢).

فمثل هذه الأمور ينبغي للإنسان أن يتنبه لها ويغتنم ما آتاه الله من صحَّة، وما تهيَّأ له من وقت، فيُقدِّم ما يسُرُّه أن يلقىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ به.

❊ ❊ ❊

٤١ - وأنشد آخر:

اعْمَلْ وَأَنْتَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَىٰ حَذَرٍ وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَبْعُوثُ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَا قَدَّمْتَ مِنْ عَمَلٍ يُحْصَىٰ عَلَيْكَ وَمَا جَمَّعتَ مَوْرُوثُ

الشرح

يقول هذا الناظم: «**اعمل وأنت من الدنيا علىٰ حذر**»: «**اعمل**»؛ أي: احرص علىٰ تقديم الأعمال، وجِدَّ واجتهد واحذر من الدنيا أن تفتنك، أو أن تشغلك عن طاعة الله ﷻ.

«**واعلم بأنك بعد الموت مبعوث**»؛ وإذا علِمتَ أنك بعد الموت مبعوث فاعلم أن الله سائلك، وإذا علمت أن الله سائلك فأعدَّ للمسألة جوابًا، وليكن الجواب صوابًا.

«**واعلم بأنك ما قدمت من عمل يُحصىٰ عليك**»؛ أي: أعمالك مُحصَاة عليك، وستلقاها يوم تقف بين يدي الله ﷻ.

«**وما جمَّعت موروث**»؛ أي: كل ما تجمعه لن ينتقل معك إلىٰ الدار الآخرة، وإنما سيرثه قرابتك، كما قال الآخر:

أَموَالُنَا لِذَوِي المِيرَاثِ نَجمَعُهَا وَبُيُوتُنا لِخَرَابِ الدَّهرِ نَبنِيهَا

ليس معنىٰ ذلك أن الإنسان لا يعتني بجمع المال واكتساب الرِّزق، وأن يذر ورثته أغنياء، فالشَّرع جاء بالحثِّ علىٰ ذلك، لكن لا تكن الدنيا أكبر همه، ولا مبلغ علمه، هذا من جهة.

ومن جهة أخرىٰ: أن يؤدي حق الله ﷻ الواجب في المال.

ومن جهة ثالثة: ألَّا يصرف شيئًا من المال الذي منَّ الله عليه به فيما يُسخط الله ويُغضبه ﷻ، مع أن الغالب أن الإنسان إذا كثُرَ ماله يُصاب بشيء من الطغيان والتجاوز لحدود شرع الله ﷻ، إلا من عافاه الله ﷻ وسلَّمه.

❊ ❊ ❊

٤٢ - وأَنشَدَ آخَرُ:

اعْمَلْ لِئَلَّا تَسْقَمْ ... فَعُمْرُكَ الْيَوْمَ مَغْنَمْ
فَجُدْ بِهِ لَا لَهُ ... وَسَيِّدٍ لَا يُطْعَمْ
وَإِنْ رَأَيْتَ فُتُورًا ... فَقُلْ لَهُ فَسَتَنْعَمْ
بِقُرْبِ رَبٍّ جَلِيلٍ ... وَمَنْ خَدَمَ فَسَيُخْدَمْ
وَاعْلَمْ يَقِينًا بِفَهْمٍ ... فَأَنْتَ عِنْدِي مُقَدَّمْ
مَنْ لَمْ يُقَدِّمْ فِعَالًا ... فَسَوْفَ يَوْمًا يَنْدَمْ

الشرح

وهذا أيضًا بمعنىٰ ما سبق في الحثِّ علىٰ العمل، وأن يستغلَّ الإنسان صحَّتَه في العمل قبل أن يَسقم، ولا يتمكَّن مع المرض من العمل تمكنه منه وهو في صحة وعافية، وأنَّ الواجب علىٰ الإنسان أن يغتنم عمره وصحَّته وشبابه، كما قال ﷺ: «**اغتنم خمسًا قبلَ خمسٍ: شبابَك قبل هَرَمِك، وصحَّتَك قبل سَقَمك، وغِناك قبل فقرِك، وفراغَكَ قبل شغلك، وحياتَك قبل موتك**»[(١)]؛ وهذا معنىٰ قوله: «**فعمرك اليوم مغنم**»؛ أي: اغتنم عمرك، وما ذهب منه لا يعود، فاغتنم الوقت؛ لأنَّ كلَّ ما ذهب منه لا يعود، الشباب إذا ذهب لا يعود، واليوم إذا انقضىٰ لا يرجع؛ فينبغي للإنسان أن يغتنم عمره؛ بماذا؟

(١) رواه الحاكم (٧٨٤٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٧٧).

قال: «**فجُد به لإله**»؛ أي: جُد بعمرك «**لإلهٍ وسيِّد لا يُطعَم**»؛ أي: تقرَّب إلىٰ الله، وابذل أوقاتك في التقرب إلىٰ الله ﷻ.

وأيضًا: جانب الفتور والكسل والتَّواني «**وإن رأيت فتورًا فقل له فستنعم**»؛ يعني: إن تركت الفتور وجُدت بالطاعة والعبادة فإن عاقبة هذا البذل والجد والاجتهاد النعيم يوم لقاء الله: «**فقل له فستنعم بقرب رب جليل**».

«**ومن خدم فسيُخدم**»؛ «**من خدم**» مراده: بِبَذل العبادة والطاعة واجتهد في طاعة الله ﷻ، «**فسيُخدَم**»؛ أي: يُنعِّمه الله يوم القيامة بالجنَّة بأن يكون مخدومًا؛ يخدمه الغلمان، وتخدمه الحور، وينعَّم مُكرَّمًا مخدومًا في جنَّات النَّعيم.

وَاعْلَــمْ يَقِيــنًا بِفَهْــمٍ فَأَنْــتَ عِــنْدِي مُقَــدَّمْ

مَــنْ لَــمْ يُقَــدِّمْ فِعَــالًا فَــسَوْفَ يَــوْمًا يَــنْدَمْ

أي: من ضيَّع وقته ولم يحرص علىٰ استغلاله فإنَّه سيندم علىٰ هذا التَّضييع يوم يلقىٰ الله ﷻ، ولا ينفعه يومئذٍ النَّدم.

❊ ❊ ❊

٤٣- أَخبَرَنَا أَبُو طَاهِرٍ حَمزَةُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ طَاهِرٍ الدَّقَّاقُ، حَدَّثنَا مُحَمَّدُ بنُ عُمَرَ بنِ بَهْتَهْ، حَدَّثَنَا عَبدُ اللهِ بنُ الهَيثَم، حَدَّثنا سُلَيمَانُ بنُ الرَّبِيعِ قَالَ: قَالَ أَعرَابِيٌّ: «طَلَبْتُ الرَّاحَةَ لِنَفسِي، فَلَم أَرَ شَيئًا أَروَحَ لَهَا مِن تَرْكِ مَا لَا يَعنِيهَا».

الشرح

وهذا كلام عظيم يُنقل عن هذا الأعرابيِّ، أنَّه عمل علىٰ طلب الرَّاحة لنفسه؛ قال: «**فلم أرَ شيئًا أروح لها من ترك ما لا يعنيها**»؛ أي: لم يجد شيئًا فيه راحة لنفسه مثل ترك ما لا يعنيها.

❋ ❋ ❋

٤٤ - وكَانَ الحَسَنُ يَقُولُ: «مِن عَلَامَةِ إِعرَاضِ اللهِ عَن عَبدِهِ: أَن يَجعَلَ شُغلَهُ فِيمَا لَا يَعنِيه».

الشرح

وبنحو هذا المعنىٰ ينقل عن بعض السلف: «من علامة المقت: إضاعة الوقت».

وهنا يقول الحسن: «من علامة إعراض الله عن عبده: أن يجعل شُغله فيما لا يعنيه».

وتأمَّل هذا في قول النبي ﷺ: «**مَن يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيرًا يُفَقِّهُهُ فِي الدِّينِ**»[١].

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا يدلُّ علىٰ أن من لم يفقهه في دينه لم يرد به خيرًا، كما أن من أراد به خيرًا فقهه في دينه، ومن فقهه في دينه فقد أراد به خيرًا؛ إذا أريد بالفقه العلم المستلزم للعمل، وأما إن أريد به مجرد العلم فلا يدل علىٰ أن من فقه في الدين فقد أريد به خيرًا»[٢].

❊ ❊ ❊

(١) رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٦٠).

٤٥- وَقَالَ غَيرُه: «هَلَاكُ النَّاسِ فِي خَصلَتَينِ: فُضُولِ مَالٍ وَفُضُولِ مَقَالٍ».

الشرح

هذا فيه أنَّ هلاك الإنسان في الفضول، والفضول يكون في المال مثلما جاء هنا «**فضول المال**»، ويكون في المقال «**فضول المقال**»، ويكون أيضًا في السَّمع «**فضول السمع**»، ويكون أيضًا في البصر «**فضول البصر**»؛ وهذه الأربع كلها مهلكات.

* * *

٤٦- **وَقَالَ شُمَيطُ بنُ عَجلَان: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ وَسَمَ الدَّنيَا بِالوَحشَةِ؛ لِيَكُون أُنس المطيعين بِهِ».**

الشرح

وبهذا الأثر ختم هذه الرسالة؛ قال: قال شميط بن عجلان: «**إن الله تعالىٰ وسم الدنيا بالوحشة ليكون أُنس المطيعين به**»؛ الدنيا وُسمت بالوحشة، بمعنىٰ: أن الإنسان إن لم يشتغل بالأُنس بذكر الله وطاعته يستوحش، وكلما بعُد عن ذكر الله تعالىٰ أصابه من الوحشة في هذه الدنيا بِحَسَب بُعده عن ذكر الله سبحانه، ولا تزول إلا به، قال: «إنَّ الله تعالىٰ وسم الدنيا بالوحشة؛ ليكون أُنس المطيعين به».

وهذا الأثر رواه أبو نعيم[1] بلفظ: «قال أبو هاشم الزاهد: إن الله تعالىٰ وسم الدنيا بالوحشة؛ ليكون أُنس المريدين به دونها، ولِيُقبِل المطيعون إليه بالإعراض عنها، فأهلُ المعرفة بالله فيها مُستَوحِشون، وإلىٰ الآخرة مُشتَاقون».

وعلىٰ كلٍّ؛ معنىٰ قول شميط بن عجلان: «إن الله وَسَمَ الدنيا بالوحشة؛ ليكون أُنس المطيعين به»؛ أي: لا أُنسَ إلَّا بطاعة الله، وحُسن الإقبال عليه ﷻ.

* * *

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ١٣٠).

وبهذا ينتهي التَّعليق علىٰ هذه الرِّسالة النَّافعة الماتعة، والحمد لله الَّذي بنعمته تتم الصَّالحات.

ونسأل الله بأسمائه الحسنىٰ، وصفاته العلا، وبأنه الله الذي لا إله إلا الله هو، أن ينفعنا جميعًا بما علمنا، وأن يجعل ما تعلمناه حجة لنا لا علينا، وأن يهدينا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا هو، وأن يصرف عنَّا سيِّئها لا يصرف عنَّا سيِّئها إلا هو، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا، وأن يصلح لنا شأننا كله، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا، وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات، إنه غفور رحيم، والله تعالىٰ أعلم.

وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

❊ ❊ ❊

الفهرس

فهرس الموضوعات

مقدمة المعتني ٥

ترجمة مختصرة للمؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ٩

مقدِّمة الشَّارح ١٢

بَابُ نَجَاةِ الإِنسَانِ بِالصَّمتِ وَحِفظِ اللِّسَانِ ١٥

بَابُ السُّكُوتِ وَلُزُومِ البُيُوت ٤٧

بَابُ مَا يَجِبُ عِندَ ظُهُورِ الفِتَن مِن طَلَبِ السَّلامَةِ وَلُزُومِ الوَطَنِ ٧٢

بَابُ الاشتِغَالِ بِمَا يُغنِي وَتَركِ الخَوضِ فِيمَا لاَ يَعنِي ٩٣

فهرس الموضوعات ١١٩

❋ ❋ ❋

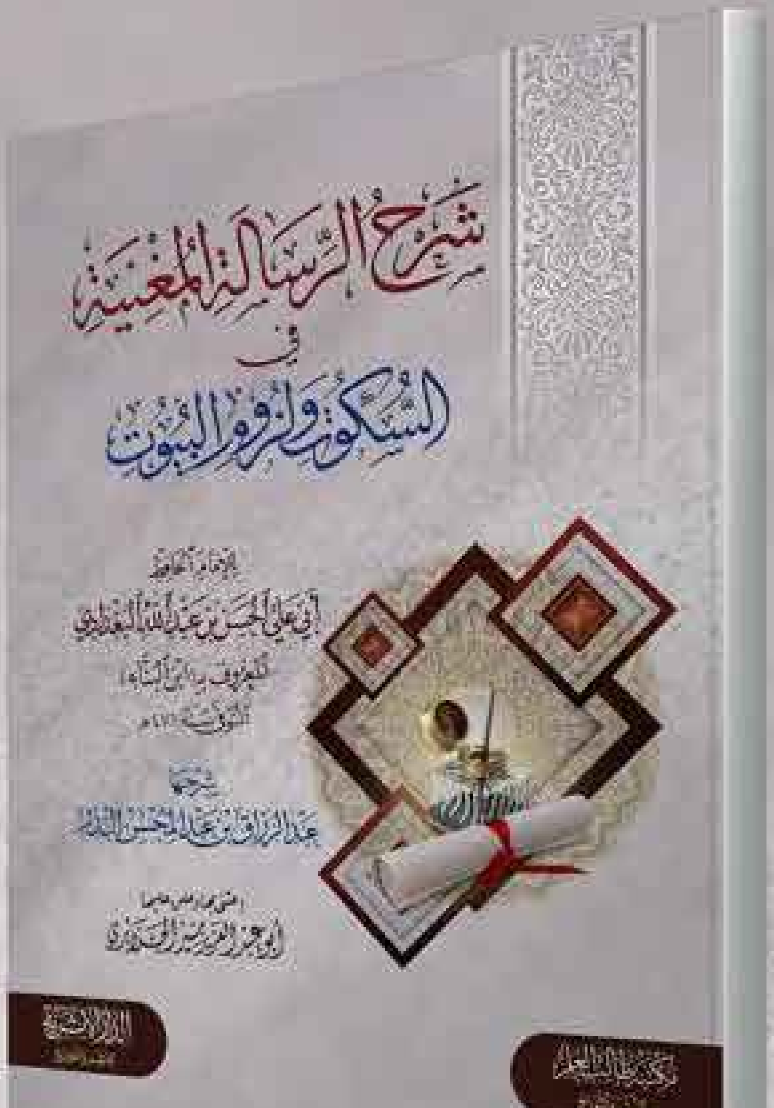

ISBN 9789961934759
9789961934759

00213791317734

www.al-badr.net